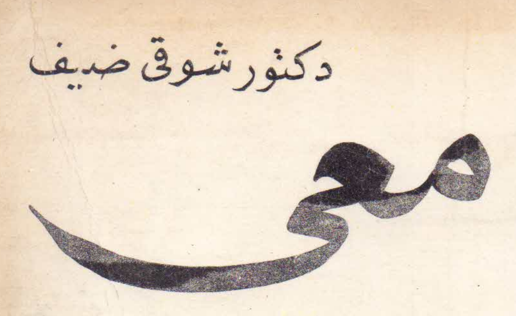
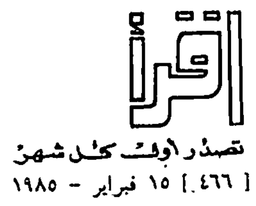

اقرأ


دكتور شوقي ضيف
معي

٤٠٥١٥٩/٠٢

م
٥٠



تصدر أول كل شهر
[٤٦٦] ١٥ فبراير - ١٩٨٥

رئيس التحرير أنيس منصور

دكتور شوقي ضيف



الطبعة الثانية



تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.


بسم الله الرحمن الرحيم

١

فى قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان ملىء بالأسماك وبنبات البردى وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار كأنما تنتظر موعدًا مضروبا ، مطلة برءوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها ، كأنها دموعها ، ويسميها أهل القرية والريف المصرى باسم البشنين ، وأوراقها تتضامّ ليلا للنوم ، فى شكل كأس زمردى ، وتتفتح الأوراق فى الصباح ، مع نسمات السحر وأندائه المتلألئة ، عن شعل ملتّهبة متعددة الألوان بين لازوردى وأرجوانى وكهرمانى . وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه حول قامات البشنين الهيفاء ، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حولها – لا ينفد – ما تشاء .

وفى الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكهم وبمياهها الفضية

البراقة ، وكأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع ، والمراكب الشراعية تتهادى فيها مقبلة مدبرة ، متمايلة مع الريح - تمايل الأغصان - بأشرعتها البيضاء ، المتفاوتة الأحجام ، وكأنما هى طيور سابحة بجناح واحد فريد ، وتبتعد فتخالها حسنات منثورة على خدود البحيرة اللامعة البراقة . وتجنح إلى المغيب فتخالها أهلة تغرب فى الأفق السحيق .

وكان فى واجهة القرية دور كبيرة بعض الشىء للأسر الموسرة فيها ، ومن ورائها تتكدس دور متواضعة مرصوصة على جانبى أزقة ضيقة تتثنى وتتلوى فى غير نظام ، تعلوها ، وتأخذ بخناقها وتلابيبها ، لجج من التراب يتناثر عليها دجاج وديكة وبط مرجان وغير مرجان ، وفوق الدور هنا وهناك بعض أبراج للحمام ، وقبيل المساء يطير منها فى جماعات ، ويظل يمرح فى سماء القرية ويدور ميامنا ومياسرا فى حركات راقصة ، حتى إذا غربت الشمس وأخذ ضوؤها يختفى تدريجا آوى كل مسرعا إلى برجه وعشه لا يخطئه .

وفى نفس هذه اللحظات يعود الفلاحون إلى دورهم من الحقول بثيابهم الزرقاء التى لا تملك كثرتهم سواها ، فهى وفؤوسهم التى يحملونها فى أيديهم كل ما يملكون من دنياهم ، ومعاذ الله أن يكون لأحد من سوادهم بقرة أو جاموسة ، فذلك مقصور على ذوى اليسار من القرية ، أما جمهورها فقلما يملك واحد منهم شيئا سوى جلبابه الأزرق وفأسه . وإن مَلك يوما جَدْيا أو خروفا كان من أسعد السعداء ، ولم يكن يصحبه معه فى الحقل الذى يعمل فيه حتى لا يرعى فى حشيش أرضه مع أبقار صاحبها الذى يعمل عنده وأغنامه ، وإنما كان يعطيه لغنّام القرية ، يضمه إلى قطيع غنمه الذى يذرع به أزقة القرية فى الصباح والمساء ، وهو يصيح عليه بصوته الغليظ هاشًا عليه بعصاه متجها به إلى شواطئ الترعة لينتف بأفواهه ما تبقى عليها من حشائش ، ومعه فى تجواله وراءها كلب ، دائما ينبح كل غاد

ورائح ويبصبص بذنبه ويلوِّح به .

وتنمّ دور الفلاحين العاملين المتواضعة عما يداخلها من ضنك وإعسار ، فبعضها بُنى من طين لازب متلاصق ، وبعضها بُنى من حجارة لا تكاد تتماسك ، والدار عادة حجرتان معها أحيانا ردهة غير فسيحة ، قد تكون مدخلا تتبعه حجرة واحدة . ويكثر أن يكون للأسرة العاملة أربعة أولاد أو أكثر ، وهم مع أبويهم يُحْشرونَ فى الغرفة أو الغرفتين كما يحشر السردين فى عُلبه ، والسعيد من أصحاب هذه الدور والأسر من كان لديه كرسى واحد أوكرسيان لاستقبال الضيوف . أما الأريكة أو الكنبة فلا يعرفونها ، ولا يعرفون النمارق أو الوسائد ولا الأبسطة ولا السجاجيد ، إنما يعرفون الحصير كما يعرفون الأكياب المنسوجة من ورق البردى ، وقد يفرشون القَش ، : قش القمح أو الأرز فى بعض الأركان .

ولا يعرف أحد منهم الفراش الوثير ، فالأسرَّة من جريد النخل ، ولا سرير من نحاس أو خشب أو حديد ، وعلى الأسرة بعض الحشايا المحشوة بالقش أو ببعض الحشائش . ويعود الفلاحون إلى هذه الدور فى المساء ، وما يكادون يستقرون بصحبة نسائهم وأبنائهم حتى يسمعوا أذان العشاء ، والمؤذن يجلجل بصوته : الله أكبر ، فتهتز أرجاء القرية ويتردد صدى الأذان فى كل دار ، ويفد الفلاحون أو كثير منهم على المسجد لصلاة الجماعة ، حتى إذا أدَّوا الفريضة عادوا إلى دورهم ليتناولوا العشاء مع أسرهم ، كلٌّ حسب ما استطاع جَلْبه إلى أسرته .

والعشاء هو الأكلة الأساسية أو الرئيسة فى القرية والريف المصرى ، بعد أن يعود الفلاح وصاحب الحقل من العمل طوال اليوم . وكثيرا ما يتألف العشاء فى القرية من الأرز والسمك ، الأرز مما يجنيه الفلاح من الحقل ، والسمك مما يحمله إليه المستنقع والبحيرة وقنوات الرى . وكانوا يعرفون الملاعق والسكاكين وقلما استخدموها فى طعامهم ، أما الشوك بأصابعها الدقيقة المدبَّبة فلم يعرفوها أبدا

وكانوا يستضيئون بمصابيح الغاز ، ويندر أن تظل مضيئة فى دار بعد تناول العشاء . وما تلبث القرية أن تخلد إلى السكون ، ولا ضوء ولا شعاع إلا فى الليالى المقمرة ، أما الليالى الأخرى فيلفُّها ظلام دامس ، ولا حركة ولا ما يشبه الحركة ، ولا صوت ولا همس ، بل صمت مطبق مخيم على كل شيء إلا أن يُسمع من حين إلى حين صياح الديكة الذى يرنُّ - كالأجراس - فى كل الأنحاء . وتغطُّ القرية فى نوم عميق حتى السحر وتباشير الصباح حين يخترق أذان الفجر حجاب الظلام إلى السماء ، والمؤذن يصيح : الله أكبر ، فتتجافى جنوب كثيرة عن المضاجع ، ويصيح فى الناس : الصلاة خير من النوم فيهبُّون من مراقدهم ويسرعون فى سيرهم إلى المسجد للصلاة .

ويتفلت من أضواء الصباح شعاع إلى كل دار فيستيقظ جميع من فيها ، وكأنما يغسل هذا الشعاع غبار النوم من عيونهم ، وتبادر فتاة كلٍّ دار ، فتحمل على رأسها البلاَّص خاويا ، وهو جرَّة كبيرة من الفخار لها عُروتان . وتنادى الفتاة بعض رفيقاتها فيسرْن معاً وعلى رءوسهن البلاليص أو تلك الجرار الكبيرة ، ويمضين إلى الترعة فيملأن جرارهن ، ويضعنها على رءوسهن فى وضع محكم غاية الإحكام ، وكأنما وضعت بميزان لا يحيف ولا يجور أبداً ، وهن لذلك لا يُمْسكن بها ، إذ لا تميل يمنة ولا يسرة ، فقد أصبح ثباتها على رءوسهن كأنه جوهر دخل فى تركيبها ، وفى أثناء سيرهن يتحدثن ويتضاحكن ، حتى تصل كل منهن إلى دارها ، فتدفع بجرتها إلى زير مُعد لذلك تجد فيه أسرتها حاجتها للشرب والرى طوال النهار ، وهو منظر مألوف فى قرى مصر حتى اليوم ، منظر بديع ، إذ ترى الفتيات يحملن فى الصباح الباكر هذه الجرار الكبيرة المليئة بالماء ، وكل فتاة تختال فى مشيتها ، كأنما تريد أن تعلن إلى أبويها وأهلها أنها ستظل دائما ترعاهم وتحمل إليهم - ما استطاعت - الشراب والغذاء .

وكل ذلك قبيل شروق الشمس ، حتى إذا أطلت من الأفق بطلعتها وأضوائها البهية فتحت لها الزروع صدورها الندية ، فعانقتها وطوقتها بقلائدها الذهبية . وحينئذ ترى الفلاحين شيبا وشبانا ماضين إلى الحقول بفئوسهم . ويتبعهم بعض نساء القرية وفتياتها من أسرها المتواضعة ممن يعملن فى الحقول مع الرجال والفتيان جنبا إلى جنب ، يبذُرْن الحب . ويسقين الزرع ، ويشتلن – أو يغرسن – شتلات الأرز وغروسه ، وينزعن أوراق القطن المصابة من فروعه الخضراء ليصبح معافًى من الآفات . حتى إذا تفتح لوزه أو كُراته وثماره وتهدلت خُصله البيضاء الناصعة أخذن يجمعنه ويجنينه ، وهن يغنين أهازيجهن الريفية .

وجميعهن لا يعرفن البرقع ولا الحجاب فهن مثل أخواتهن فى ريف مصر دائماً سافرات . فحجابهن وبرقعهن الحياء المترقرق فى أسارير وجوههن . وهن لا يعرفن الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة . فالبراءة تتألق على جباههن .

وكما أن للرجال والشباب من أهليهم الجلباب الأزرق لا يخلعونه . كذلك لهن الثوب الأسود سواد الطين الذى يعملن فيه لا يزايل أجسادهن . فهو كل ما يملكن وكل حليهن وزينتهن ، لا يعرفن شيئا وراءه إلا ما يرَيْنه على نساء الموسرين فى القرية . لا يعرفن الثياب الملونة ذات الحمرة القانية أو الزرقة الصافية . ومعاذ الله أن يعرفن الثياب الشفافة والأخرى الحريرية المزركشة . ومعاذ الله أيضا أن يعرفن المساحيق البيضاء بياض الياسمين أو الحمراء حمرة الورد والياقوت .

ومع ذلك فكثيرات من هؤلاء الريفيات البائسات تجرى فى وجوههن نضرة الحياة بأكثر مما تجرى فى وجوه كثيرات من بنات الموسرين فى القرى أو البنات الحضريات لفارق مهم هو نفس فارق الأزهار التى تعيش طليقة فى الطبيعة ناعمة بمهدها من التربة وما يحتضنها من أشعة الشمس وبما يتلألأ عليها سحرا من حبّات

الندى ، والأزهار الأخرى التى تعيش حبيسة فى الأصص والظلال داخل البيوت والجُدْران .

وحقا كان يحفّ بحياة الأسر المتواضعة فى الريف بؤس كثير ، غير ان من الحق أيضا أنك كنت دائما ترى البسمة ترفُّ على عيون الجميع نساء ورجالا وفتيات وفتيانا وعلى شفاههم ، وكأن الأمل فى حياة أفضل وأبهج وأروع لم يكن يزايلهم أبدا ، إذ لا يزال يتسلل إلى نفوسهم تسلل أضواء الفجر أواخر الليل فى الآفاق .



لأسرة من أسر السكان فى واجهة القرية وُلد طفل لأبوين فرحا به ، لا لأنهما لم يرزقا ولدا ذكرا قبل ذلك ، بل لقد رزقا ولدين قبله ، غير أن الموت اختطفهما سريعا ، ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ فى رعايتها له وعطفها عليه عطفا لم يبرح ذاكرته يوما ، وكانت بارّة بزوجها الشيخ العالم ، فهى دائما تعزه وتجلّه ، لا لأنه كان ابن خالتها فحسب ، بل أيضا لأنه كان دمث الخلق لا يصدر فى شىء إلا حسب مشيئتها ، إذ استقرّ فى نفسه أنها حصيفة وبعيدة النظر. وحقًّا كانت كذلك ، وكان قلبها ينطوى على رحمة بالغة للضعيفات والضعفاء من حولها ، رحمة ترافقها إرادة حازمة صلبة ، وشيئا من إرادتها المصممة ورثه الطفل فيما ورثه عنها من الشيم والأخلاق .

وأحست فى أوائل رضاعتها لطفلها أنه لا يجد عندها غذاءه الكافى ، وكان ممن

يترددن عليها من نساء القرية المتواضعات أم لطفلة ثكِلت زوجها حديثا تاركا لها ابنتها فى مهدها ، فسألتها هل تجد عندها ما يكفيها من الغذاء ، وأجابتها على الفور : إنه يزيد عن حاجتها ، وليتك تعطينى طفلك فإنى أضيق بما يبقى من ابنتى ، وناولته لها ، فضمته إلى صدرها ، وظلت تختلف كل يوم لتشارك فى رضاعته ، وبذلك ضم الطفل إلى أمه أما ثانية مرضعة ، وكانت له أخت تكبره فضم إليها بالرضاع أختا ثانية .

وكان الأب قد أكمل تعلمه فى المعهد الأزهرى بدمياط ، وعزف عن أن يتقلد وظيفة من وظائف رجال الدين ، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه بأم الطفل مكتفياً بمزرعة صغيرة تعوله هو وأسرته . ومنذ مَشىَ الطفل وأخذت تنحلُّ عقد لسانه كان يرى أباه فى كل صباح يقرأ شيئا من كتاب الله وبعض الأوراد فى كتاب دلائل الخيرات . وكان الأب سمح النفس محبوبا من أهل القرية لا لدروسه الدينية التى كان يعقدها لهم فى المسجد أحيانا بين صلاتى المغرب والعشاء فحسب ، ولكن أيضا لسعيه لهم – بقدر ما يستطيع – فى مصالحهم غير منتظر منهم أجراً ولا شكرا .

وكان الطفل كثيرا ما يرى فى يد والدته سُبْحة تذكر الله عليها وتسبح بحمده ، محركة خرزاتها خرزة بعد خرزة حتى تبلغ المائة عدًّا ثم تبدأ من جديد نفس الدورة . وكانت على الحائط سبحات أخرى معلقة ، ولم يكن أبوه يستخدمها ، فهو يسبِّح الله ويذكره كثيرا عقب الصلوات ولكن دون حاجة إلى سبحة وخرز يعدُّ عليه ذكره وتسبيحه ، وكان يكثر من تلاوة القرآن الكريم كلما وجد فراغا وخلا إلى نفسه ، فهو سلواه وريحان فؤاده .

وكل ذلك كان القَطْر والنَّدى والأريج والشذَى الذى تفتح فيه الطفل كما تتفتح البراعم ، فاسم الله دائما يتردد فى أذنه ، بل ينقش نقشًا فى صدره وعلى قلبه ، وتنقش معه محبة الخير لأبويه وشقيقته الكبرى ولأمه وأخته من الرضاع

ولكل من حوله ، ورث ذلك عن أبيه وأمه وكانا لا يعرفان بغضًا للناس ولا ضغينة ، وكأنما صنعا طفلهما على مثالهما ، فنشأ لا يحمل ضغينة لأحد ولا بغضا أو موجدة .

وكان الطفل يبدأ يومه دائما بتحية أبويه ، ولم تكن التحية كلاما ، بل كانت تقبيلا لليدين الكريمتين ، يد الأب ويد الأم : واجب يومى كان الطفل يؤديه صباح كل يوم كما يؤديه أطفال القرية من حوله ، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعا . وقد أقلعت الكثرة من الأسر فى مصر الآن عن هذه العادة ، وخاصة الأسر المثقفة ثقافة عصرية أو التى تدعى لنفسها شيئا من المدنية كأنها تعد ذلك ضربا من العبودية أو من الذلة ، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد ؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا هذه العادة هناك ، فظنوها عادة سيئة ، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وُجِّهت لغير الأب والأم ، أما هما فحرى بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تجلة لهما واحتراما .

وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة الطيبة التى كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قديسين فى نظر الأبناء أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من الإجلال .

وكانت لجد الطفل مزرعة صغيرة بجوار القرية يمتد على مَرْواها نخل مرصوص كثير : النخل العادى المعروف باسم نخل البلح الرملى ، ونخل آخر لا يدرى الصبى من أين جاء جده بغروسه ، لأنه كان لا يستحيل رطبا أبدا ، بل يظل فى عِذْقه حتى تزداد حلاوته جدا ويتجمع عليه كثير من الزنابير ، ويأخذ الجناة فى جنيه

وجمعه . وكان بالمزرعة بعض أشجار للتوت والجميز والرمان وورود ورياحين أرجة .

وكانت المزرعة على قيد خطوات من دار الطفل فبمجرد أن خطا إلى الربيع السادس من حياته أخذ يتردد على المزرعة مسرِّحاً الطرف فى زروعها وثمارها . وكان من أروع ما يعجبه فيها النخل بقامته السامقة المهيبة وأجنحته العالية من السعف الأخضر الممتدة دائما فى الفضاء امتدادا كله جلال ووقار وأبهة وكبرياء .

وكثيرا ما كان أبوه يصحبه معه إلى مزرعته لقضاء بعض أعمال بها وكان يفرح لهذه الصحبة وخاصة فى المساء ، إذ يتاح له رؤية الشفق على أفق السماء الغربى ، وكأنه يصبغها بألوان مضيئة وردية وبنفسجية وياقوتية وذهبية ، وتتداخل الألوان بعضها فى بعض بالطول والعرض ، مع شُطب وخطوط وتموجات بهيجة . ويأخذ الشفق فى الغروب ويختفى تدريجا وكأنما الطفل فى حلم ، فيفرك عينيه . ويستدير نحو نداء يسمعه ، إنه الحالب للبقرة يناديه ، فيسير إليه ، ويناوله قَعْب اللبن أو وعاءه ، وقد امتلأ إلى حوافيه ، فيعبّ منه حتى يرتوى ، طبعا دون أن يُغْلَى ، دفعا لما قد يكون فيه من ميكروبات ، فأبناء الريف المصرى – وكثير منهم حتى الآن – لا يعرفون شيئا عن الميكروبات ، حتى يخشوا منها على أنفسهم أذى أو ضررا .

وكانت أم الطفل تصحبه هو وشقيقته فى الليالى المقمرة إلى سطح الدار ، ولم تكن دارهم وحدهم ، بل كانت دار الأسرة جميعها : دار الجد والأعمام ونساءهم وأولادهم ، ولكل أسرة فيها ركنها الخاص بها المكون من حجرتين وردهة واسعة ، وكانت الأم تصعد بابنيها إلى السطح للفرجة على أشعة القمر الفضية وهى تكسو البحيرة بأضوائها الساطعة . وتأخذ البحيرة أمام القرية شكل خليج واسع تستدير حوله الزروع وأشجار النخيل الشامخة فى زهو وخيلاء . منظر لا ينسى الطفل مدى روعته فى نفسه .

وكانت أخته كلما رأت بعض المراكب تمايل مع الريح مصعدة أو منحدرة هللت ، والأم تحدِّق بعينيها وهى ساكنة صامتة . وكانت تظهر من حين إلى حين سفينة صيد عليها الصيادون وفى أيديهم الشباك يصيدون بها السمك ، وكانوا يعودون إلى القرية بمقادير منها كبيرة ، تزيد عن حاجتها فيبيعونها لتجار السمك ممن ينتظرونهم صباح مساء .

وكانت أمام دار الصبى قناة يغسل فيها فتيات القرية ملابس أسرهم وأوعيتها ، وكنَّ يُحدثن ضجيجا ، وخاصة حين يسقط إناء من فتاة فى قاع القناة أو يبعد عن يدها إزار أو رداء ، وكانت الفتاة تمسك حينئذ بيد إحدى رفيقاتها ، وتمدّ يدها الثانية إلى القاع بحثا عن الإناء حتى تجده ، أو ترسل تلك اليد وراء الرداء أو الإزار حتى تلتقطه وتعيده . وكانت بين مسجد القرية والقناة خُطًى قليلة تناثر عليها بلاط ، ليخطو عليه المتوضئون ، وكان الطفل وأمثاله من الصغار والصبية لا يستطيعون أن يقفزوا من بلاطة إلى بلاطة فكانت أقدامهم لا تكاد تلمس الأرض بين بلاطتين حتى يضعوها بحذر على البلاطة التالية .

وكانت فى القرية مدرسة أولية أخذ الصبى ينتظم فيها منذ السنة السادسة من حياته ، وكانت لأبناء سكانها عامة الموسرين منهم والمعسرين ، إذ لم تكن القرى الريفية تعرف شيئا من الفروق فى التعليم بين أبناء الفئتين ، بحيث يكون لكل منهما مدارسه الخاصة كما فى المدن ، فالجميع فى القرية سواء يشتركون فى كل شىء كما يشتركون فى الماء والهواء . وحقا كان هناك الملاك وكان هناك الأُجَراء ، ولكن إذا أنعمتَ النظر واستقصيت وجدت بين الجماعتين رحما وقرابة ، فكل أسرة فيها من اتسع رزقه فملك العقار ومن ضاق رزقه واشتد ضيقه حتى لم يملك سوى جلبابه الأزرق وفأسه الذى يفلح به الأرض .

وربما كان هذا الصبى مثلا لقيام الأواصر فى القرية بين الموسرين والمعسرين ،

فله أخت شقيقة من أبيه وأمه ، وله أخت من الرضاع ، وأهل الأختين يختلفان يساراً وإعسارا ، ومع ذلك فالصلة بين الصبى وأختيه وثيقة وهى صلة تقوم على الحنان والتعاطف الرقيق . وبالمثل كانت تقوم الصلات فى القرية بين جميع أهلها ، كأنهم أسرة واحدة ولذلك مظاهر كثيرة ، فابن المالك للأرض لا ينادى أجيرا أو فلاحا إلا ويسبق اسمه بكلمة « عمى » أدبا لطيفا . والملاك والأجراء يأكلون معا فى المواسم والأعياد ، ومن كن يَقُمْنَ على الخدمة فى الدور من الفتيات كن يأكلن مع صاحبة البيت وبناتها ولا يشعرن أبدا بشعور ذلة أو ضعة أو أنهن خادمات لسيدات أو سادة ، فرب البيت يناديه بلفظ عمى ، ويشعرن بحق أنهنّ يعملن فى دورهن لا مستأجرات .

وكما يجتمع الرجال فى المسجد للصلاة لا فرق بين موسر ومعسر ، كذلك كان يجتمع أبناؤهم فى المدرسة الأولية للتعليم دون أى فارق فى الانتفاع به ، بحيث إذا أظهر أحد أبناء الأُجَراء أو الصيادين فى القرية استعداداً واضحا للنبوغ والتفوق فى إكمال التعليم لم تُسَدّ أمامه الأبواب ، بل فُتحت على مصاريعها اعتزازاً من القرية بابنها المتفوق النابغ .

وكانت المدرسة الأولية فى القرية حينئذ مدرسة مختلطة ، يختلط فيها البنون والبنات أو الذكور والإناث اختلاطا طبيعيا . وكأن المدارس الريفية هى التى استجابت مبكرة لفكرة الاختلاط فى التعليم . وكان الإناث والذكور فيها يتنافسون فيما بينهم منذ التحاقهم بها فى سنوات حياتهم المبكرة ، وكأن التنافس فى حقيقته سُنَّةٌ من سنن الإنسان ، سنة فى نفسه وفى جوهره وطبيعته ، فهو دائما يتنافس مع زملائه وزميلاته ذكورا وإناثا سواء فى المدرسة أو فى الحقل أو فى المصنع .

وكان التنافس على أشده فى المدرسة بين البنين بعضهم وبعض وبينهم وبين البنات ، وكان البنون أكثر تفوقا فى دروس الحساب والمحفوظات بينما كانت البنات

يتفوقن عليهم فى دروس الإملاء ، فكان المدرس القائم على المدرسة حين يُملى موضوعا تسرع بعض البنات بترداد الكلمة الأخيرة إيذانا أو إعلاما بأنهن انتهين من كتابة الجملة المملاة ، وكان الصبى يبطئ فى الكتابة ، ولا يستطيع – مهما حاول الإسراع – اللحاق بهن أبدا .

ولم يكن المدرس يشتد على التلامذة فى التعليم مستخدما عصاه أو مقرعته أو مسطرة من حديد كان يضعها معها على منضدة بسيطة أمامه ، إذ كان يكتفى – تخويفا لهم – بأخذ ابن له معهم بالشدة ، بل بالقسوة المتناهية حين يلفظ بكلمة خطأ أو يكتبها ويخطئ فى بعض حروفها أو يغلط فى حل مسألة حسابية فإنه كان حينئذ يضربه مؤثرًا ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعود إلى غلطه أو خطئه ، وكثيرا ما كان يعود ، فيضربه بالمسطرة من جديد . ويظل التلاميذ والصبى معهم يشعرون بخوف ما بعده خوف ، ولا يعرف فى هذا الزمن غير البعيد فى أواخر العقد الثانى من القرن الحاضر ، هل كانت الهيئات المشرفة على التعليم الأولى فى مصر تحرم – أو أنها كانت تحلّ – ضرب التلاميذ فى الكتاتيب والمدارس ضربا مبرحا ، فضلا عن ضربهم بمساطر من حديد ، بأسها شديد .

وذات يوم من أيام الصيف فى سنة الصبى السابعة عرضت عليه أخته الشقيقة أن يذهب معها إلى مزرعة أبيه ، وكانت تبتعد عن القرية بنحو كيلومترين ونصف أو أكثر قليلا ، فقال لها : إنى أخشى كلاب الحراسة فى الطريق أن تخرج علينا من بعض الدور أو من بعض الحدائق وتعضنا ، فقالت له : لا تخف ما دمت معك ، وما كادا يتقدمان فى الطريق حتى سمع الصبى نباح كلب ، فوضع ذيل ثوبه بين أسنانه وأطلق ساقيه للريح ، فأسرعت أخته خلفه وأمسكت به وأقنعته أن الكلاب لن تعرض له ما دامت قد سلمت منه ولم يرمها ولا قذفها بطوبة أو حجر .

وأنس لكلام أخته ، وسرعان ما عاد يرافقها ، وبالقرب من مزرعة أبيها

سمعت كلاب حراسة وطء أقدامهما على الطريق فنبحت وصاحت وصخبت ، وجرى كلب منها نحوهما فجمد الدم فى عروق الصبى ، وخشيت أخته عليه أن يعضه الكلب فحملته ، وجرت تقطع الطريق ، ولم يرجع الكلب بل أسرع وراءهما يصيح مغيظا مغضبا ، وتصادف أن كان رجل مارا بالطريق ، فلوّح للكلب بعصاه وزجره ورده .

ووصلا إلى المزرعة متعبين مجهدين ، فلم يجدا أباهما ، ومكثا فيها قليلا ، وفى عودتهما رأت الأخت أن تعدل عن الطريق الممهد لما فيه من الكلاب وأن تشق لنفسها وللصبى طريقا تخترق به المزارع ، واعترضها مسرب للمياه ، فقالت له : هلم بنا نقفز هذا المسرب الصغير ، ولم تلاحظ أن الصبى أصغر من أن يستطيع قفزه ، وشمرت ثوبها ، وقفزت وأصبحت فى جانب والصبى فى جانب ، ولم يعد أمامه إلا أن يتبعها ، فرجع إلى الوراء خطوات ، وجمع عزيمته ، وأسرع فى المشى مشمرا ثوبه ، وقفز ، وإذا به فى وسط المسرب ، وصرخت أخته كى يلحقها أحد الفلاحين لإنقاذ الصبى ، وسرعان ما أغاثها واحد منهم ، فأنقذه .

ولم تكد أمها تراهما حتى سألت عن الخبر ، فلما عرفت ما جرى للصبى عنفت أخته بشدة . وربما كان هذا الحادث هو السبب فى أن الصبى لم يقبل بعده على الاستحمام فى الترعة كعادة أبناء الريف ، فلم يتعلم السباحة ، إذ ظل يخشى الغرق إن هو غامر مثل لداته وسبح فى الترعة معهم .

وأخذ الصبى يكثر من الغدو والرواح إلى مزرعة جده كلما سنحت له فرصة ، ومع أنه كان يخاف من الاستحمام فى الترعة لم يكن يخاف من تسلق الأشجار ، وكان يحب خاصة تسلق أشجار الجميز لسهولة التسلق عليها وسهولة القعود على فروعها ، إذ تمتد وتستعرض وكأنها أذرع مريحة ، بل منها ما يشبه وسادة صغيرة ، وكان الصبى يصعد كثيرا إلى تلك الأشجار لجنى جميزها .

وكان التسلق على النخيل أكثر صعوبة من التسلق على شجر الجميز ، ولكن جمال لون البلح وحمرته الساطعة كانتا تدفعانه دفعا - دون ريث - إلى صعود أشجاره وجنى البلح الأحمر من أعذاقه وشماريخه الطويلة ، وكان يعجبه منه الملوَّن : ذو اللونين المتقابلين : اللون الأحمر واللون الضارب إلى الصفرة ، وكان اجتماع اللونين فيه يجعله أجمل وألطف شكلا . وحين يظهر فى الشماريخ بعض الرطب كان يتسابق هو وبعض الصبية من أبناء عمومته إلى الصعود على النخيل لاقتناصه . وبَوْنٌ بعيد بين طعم هذا البلح الذى كان يجنيه بيديه الصغيرتين وطعم البلح المماثل الذى طَعِمَه فيما بعد بالمدن حين شَبَّ عن الطوق وبعد عن الريف .

وكذلك كل ثمار القرية مقرونة إلى ما يُجتَنَى منها و يرسل به إلى بعض المدن ، حتى الخيار ، فخيار الريف فى حقله شىء آخر غير الخيار الملقى على العربات فى المدن أو فى الدكاكين ، لا لأنه طازج فحسب ، بل أيضا لأن جانيه هو طاعمه الذى يختاره بيده ، وهو فى حقله . وقل ذلك فيما يختاره الصبية بالريف من الفواكه وغيرها ، فما يقطفونه يكون حبيبا إلى نفوسهم ، وكأن هذا القطف نفسه له تأثير فى القاطفين ، تأثير بعيد .

ودائما يوجد فرق بين ما يقطفه الإنسان بيده وبين ما يقطفه له غيره ، وهو فرق ما بين إرادته ورغبته الكاملتين وإرادته ورغبته الناقصتين . ونفس رؤية الثمار على أشجارها شىء يختلف تمام الاختلاف عن رؤيتها مجموعة فى الدكاكين ، وهل يمكن لدكان من دكاكين الفواكه أن يتيح لك رؤية البلح الأحمر فى عِذْقه مثلا غارقا فى أضواء الشمس ، أو رؤيته - وهى ساطعة عليه - مختلطا ببعض الرطب أو ببعض البلح المخدَّد الملون .

وهذا نفسه ما لاحظه الصبى فيما بعد حين رأى الورود والرياحين فى محلات الأزهار بالمدينة وما كان يراه منها فى القرية ، فالوردة المزهوة التى كان يبصرها فى

صباه رافعة الرأس على ساقها أو مائلة ميل خُيَلاء تختلف من كل وجه عن الوردة الغريبة المنكَّسة فى واجهات محلات الأزهار ، فتلك وردة نابضة بالحياة دافقة بالنضرة ، وهذه وردة فارقت منبتها وموطنها ، قُطفت من شجرتها عنوة ، لتوضع فى زهرية ، فهى تعطى اللون والشذى إلى حين ، ولكن لا تعطى الحيوية ولا مجموعة الألوان البراقة التى تعطيها الوردة حين تشرق عليها الشمس وحبات الندى تلمع على أوراقها ، وفى الظهيرة حين تنسكب فيها أشعة الشمس ، وفى المساء حين تفضى الشمس إلى الغروب وتستقبلها ألوان الشفق الزاهية . والوردة فى كل هذا النعيم للطبيعة تتمايل على أغصانها والنسيم من حولها يداعبها طوال الليل والنهار ، وماء القنوات يجرى منسابا متدفقا من تحتها ، والطير تغنى وتشدو ، وتملأ الحقول شدوًا وغناء .

وكان مما يروع الصبى رؤيته الفلاحون وهم يشقُّون أديم الأرض بمحاريثهم وماثُبِّت فيها من نِصال الحديد مودعين فى الأرض حبوب الزروع . وكذلك رؤيتهم وهم يروونها ويدفعون ماء الحياة إلى شرايينها الكثيرة بآلات يديرونها منذ أقدم الأزمنة ، ظلوا جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ينقلون بها الماء من الترع إلى قنوات الزروع الصغيرة مستخدمين فى ذلك طنابير أسطوانية منذ مئات السنين وسواق كبيرة مؤلفة من دواليب ضخمة قائمة على آبار عميقة وقد ثُبِّتت عليها قواديس أشبه بكيزان كبيرة . ويدير الدولاب عادة زوج من الثيران أو البقر أو الجاموس ، فتهوى القواديس فارغة إلى قاع البئر ، وتصعد زاخرة بمياه فضية تسيل فى أكواب متسعة من القنوات والمراوى إلى الزروع رحيقا من النيل العذب . وفى أيام الفيضان كان يتضرَّج الرحيق بحمرة الطمى رمزا لما يحمله إلى الزروع من دم الخصب ورغد العيش والحياة .

ودائما تُطْرب السواقى سامعها فى أثناء دورانها وجَلْبها لماء النيل بلحون حزينة .

وكأن كل ساقية فى الوادى الأخضر الزمردى تبكى وتذرف الدمع على عاشق دفين . وماتنى القواديس تحمل دموعها التى لا تنفد ولا تفنى أبدا . وعادة تدور السواق نهارا أو ليلا . وكان يتصادف فى بعض الليالى أن يستيقظ الصبى ويستمع إلى غناء الساقية وغناء سائقها الساهر معها . ويختلط الغناءان الشجيَّان ، فيطرب الصبى لما يرسلان من مختلف اللحون .

ولم تكن أم الصبى من القرية ولا من إحدى قرى دمياط بل كانت من قرية بجوار بلدة المنزلة . وقد نشأ الصبى يرى فى مكتبة أبيه كتب فقه وحديث مختلفة ، وكان جده شيخا مثل أبيه ، وكان لهذه النشأة فى بيئة دينية أثر عميق فى نفسه ، فقد نما عوده على محبة الإسلام ورسوله الكريم وإعزازهما وتوقيرهما وتقديسهما . وكان فى مكتبة أبيه بعض كتب تاريخية وأدبية مثل فتوح الشام وديوان ابن الفارض وقصة ما جدولين للمنفلوطى ، فكان الصبى ينظر فى هذه الكتب وأمثالها أحيانا وفى بعض الكتب الدينية .

وكانت أم الصبى تعتز بأبيها اعتزازا شديدا ، وكان قد توفى وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ، وكان عمدة من عمد الريف على شىء من اليسار ولكن لم يكن من أهل الثراء ، وكانت ابنته لا تزال تقص لطفليها عنه قصصا كثيرة ، وكيف كان يحبها ويدللها مع حزم فيه ، وتحكى من حزمه فى تربيتها وتربية أخ لها أن الأخ غضب يوما ، فلم يُقبل على العَشاء كعادته ، وعبثا حاولت أمه أن تسترضيه ليتناول عشاءه ، ولاحظ الأب ذلك فطلب من الأم أن تتركه وترفع العشاء وتعطيه مفتاح الغرفة الخاصة بالطعام ، ووضعه فى جيبه ، وبات خالُ الصبى جائعا ، ولم يعد بعدها للغضب على الطعام ، بل كان يأكل ما يقدَّم له دون أى غضب أو ما يشبه الغضب .

وما أكثر ما قصَّت الأم على الصبى وأخته كيف كان يستشعر أبوها كرامته أمام

الحكام والكبراء ، وكانت تردد لها أن على مبارك الوزير المشهور فى القرن الماضى أراد أن يشترى ضيعة من الدولة وحكَّم نفرا من العمد حول بلدته « برمبال » القريبة من المنزلة ، ليقدروا له فى الضيعة ثمن الفدان الذى سيحسب على أساسه ثمنها الكلى ، فكلهم رأى مجاملته ، وقدَّر الفدان فيها بثمن بخس ، وسأل أباها فقال له : ليست صحيحة هذه الأثمان التى قُدِّرت للفدان ، فثمنه الصحيح يزيد على ذلك كثيرا ، وسأله أن يعينه ، وأخذ برأيه . وربما كان لهذه القصة التى رددتها الأم على سمع الصبى كثيرا أثر فى أن يحق فيما بعد الحق فى آرائه وأحكامه ، فلا يداهن ولا يجامل ، غرس خلقى غرسته أمه فى نفسه منذ بواكير حياته .

وكان الصبى يألف جدته أم أبيه ويجلس إليها كثيرا ، وكانت تحكى له بعض ما سمعته من أخبار الفتوح الإسلامية مما كان يقرؤه جده لها ، إذ كان شغوفا بتلك الأخبار وأيضا بأخبار الخلفاء . وكانت لا تزال تقصُّ على الصبى بعض الأقاصيص ، من ذلك أقصوصة حكتها له عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ظلت لا تبرح ذاكرته ، ومؤداها أنه كان مارا فى موكبه ببغداد فى أحد الأيام ، وحين وصل به الموكب إلى قصر أبيه الرشيد حانت منه التفاتة إلى نوافذه وشرفاته ، فرأى زوجة أبيه زبيدة تطلُّ للفرجة على موكبه ، وأحس أنها تتمتم بكلمات ، فأوقف المأمون الموكبَ وصعد إليها ، فاستقبلته مرحِّبة ، وسألها عما كانت تتمتم به من كلمات غير بيِّنة ، فحاولت أن تموِّه عليه وتتخلص من سؤاله برفق ، ولكنه ألحَّ عليها واستحلفها بأبيه الرشيد . وكان قد نشب خلاف عنيف بينه وبين ابنها الأمين وتحاربا ودارت الدوائر على الأمين وقُتل فى الحرب ، فلما استحلفها بأبيه لم تر بُدًّا من أن تذكر له بصدق ما كان يدور فى نفسها من كلمات ، وقالت له ، أما وقد استحلفتنى بأبيك الرشيد فإنى أذكر لك بحق ما حدثتْنى به نفسى ، لقد كنت أتمتم : ليت هذا الموكب كان لابنى الأمين ، وكان هو الذى انتصر على أخيه المأمون .

وطيّب المأمون خاطرها ، وندم على ما كان منه من محاولة التعرف على ما جال فى خاطر زوجة أبيه ، مما كانت تتمتم به وما كان من إسرافه عليها فى الإلحاح حتى سمع منها ما كان فى غنى عن سماعه . واستأذن منها فى الانصراف وهو يقول فى نفسه نادما : لعن الله الإلحاح والملحين .

ولعل هذه الأقصوصة التى لقّنتْها الصبىّ جَدّته وهو صغير السبب الحقيقى فى أنه تعوّد أن يأخذ نفسه بأن لا يلح فى أى شىء ، وألاّ يفكر فى التعرف على أى خبر يمس شخصا مهما تكن صلته به ، وظل طوال حياته لا يزدرى شيئاً ازدراءه للتطفل والمتطفلين الذين يتسقطون أخبار الناس . وهى خصلة زرعتها فى نفسه هذه الجدة الريفية الأمية من جدات الجيل الماضى اللائى كن يعرفن كيف يلتقطن من الأقاصيص والأخبار ما يربّين به أحفادهن تربية قويمة .

وبمثل هذه الأقصوصة كانت الجدات الأميات فى جيل الصبى ما يزلن يحاولن تبصير الأحفاد بالحياة وما ينبغى أن يتحلوا به فيها من سلوك قويم . وكانت أم الصبى تحفظ ما لا يكاد يحصى من الأمثال وكانت تقول لابنها دائماً : علّمها لى أبى ، وكأنها كانت كل ثقافة الأمهات فى جيل الصبى والأجيال الماضية ، وهن يحاولن ذكرها لأبنائهن لتتسع خبرتهم بالحياة . وبدون ريب كان الصبية حينئذ يجدون فيها من الحكمة على ألسنة هؤلاء الأمهات ما لا يجده صبية اليوم فى كثير من القصص المسمى بأدب الأطفال ، حكمة تصور الحياة فى عبارات مركزة توارثتها الأجيال على ضفاف النيل .

وجدير بأمهات الصبية فى الجيل الحاضر أن يحتفظن بشىء من هذه الحكمة يغذين به أبناءهن ، ويبدو أنه لم يعد عندهن من الوقت ما يتيح لهن الحفاظ على ذلك لأولادهن ، فالعمل خارج المنزل فى الوظائف كثير ، والمعرفة تشعبت وتراكمت فى أذهانهن بحيث ضاعت منهن الحكمة البصيرة التى كانت لأمهاتهن فى

منحنيات معرفتهن المنوعة ومنعرجاتها حتى لكأنما المعرفة المتراكمة والحكمة نقيضان لا يجتمعان . وحرى أن يتلافى ذلك المربون والمعلمون فيعرضوا على الصبية فى الجيل الحاضر بعض طرائف الحكم التى تضىء لهم الحياة وتجعلهم يسيرون فيها على هدى بعيون أكثر يقظة وأحدّ بصرا .

وكانت الجدة تقصُّ على الصبى أقاصيص كثيرة عن الجنِّ والعفاريت ، وكانت تحكيها للصبى وهى شديدة الإيمان بها ، وخاصة أقاصيص الجن الذين كانوا يتراءون فى الليالى الداجية المظلمة لمن يسهرون على السواقى لرىِّ الأراضى ، فهذا فلان الذى يعرفه الصبى مَثلتْ له ست سيدات من الجن ذات ليلة ، وهو يسير خلف بقرتين مشدودتين إلى إحدى السواقى ، وكل منهن تحمل ابنها على يدها اليسرى ، ولم يتبادر إلى خاطره أنهن من الجن ، بل ظنهن من الإنس ، فصاح بهن ، فلم يلتفتن إليه ، فحاول الاقتراب منهن ، حينئذ تسمعن كأنهن يردن النَّجْوى والحديث سرا ، حتى اذا أصبح قاب قوسين منهن أو أدنى لم ير واحدة منهن أمامه ، إذ اختفين وكأن الأرض ابتلعتهن !

وكانت الجدة تقول للصبى إن الجن والعفاريت تتشكل أحيانا بأشكال بعض الحيوانات ، وقصت عليه فيما قصت من ذلك أن شيخا - وتسميه للصبى - كان إماما لمسجد تعوَّد أن يذهب إلى أداء الصلاة به فى الفجر ، ولاحظ أن هرًّا يسبقه إلى المحراب ويترك فيه بعض فضلاته ، فترصد له وقتله . وكان هذا الشيخ مأذونا يكتب عقود الزواج ، فدق باب داره فى الليلة التالية لمقتل الهر رجلان معهما مصباح وقالا له ، جئناك كى تصحبنا لكتابة عقد زواج ، والناس مجتمعون ينتظرونك فلبس ثيابه ، وخرج معهما ، وتقدمه الرجلان ومعهما المصباح ، وسارا به نحو القرافة ، ومضى معهما آمنا ، إذ رأى على بعد سرادقا منصوبا وأنوارا .

ودخل السرادق فرأى أناسا كثيرين فى انتظاره ، ورأى ما يشبه محكمة منعقدة .

وصاح به رئيسها ، لقد جئنا بك لنحاكمك على قتلك نفسا بريئة بغير حق ، إذ قتلت فى فجر الليلة الماضية هرًّا ، ولم تدرك أنه من إخوانك الجن ، وليس من حقك قتله ، فكيف قتلته ؟ وما السبب فى قتلك له ؟ فقال : إننى قتلته ، لأنه تعود أن يرتاد محراب المسجد ويترك فضلاته فيه ولم أكن أعرف أنه من الجن . حينئذ تسارَّ القاضى مع صاحبه الذى على يمينه وصاحبه الآخر الذى على يساره، ولم يلبث أن أعلن الحكم ببراءته ، ونظر الشيخ حوله فلم يجد قضاة ولا أناسا ولا سرادقا منصوبا ولا مصابيح مرفوعة وزاغ منه البصر ، وعاد إلى داره خائفا فزعا .

وهى أقاصيص خرافية طبعا فلا أناس ولا قضاة ولا سرادق ولا مصابيح ، كل ذلك لم يبصره الشيخ ، ولا أبصر سائق الساقية نساء حاملات أطفالهن على أذرعهن ، وقد يكون هذا وذاك من بعض الرؤى والأحلام التى كان يراها بعض الناس فى نومهم ، فيظنونها حقيقة ويحكونها لمن حولهم . وربما جسمها لهم الوهم ، فظنوها حقيقة واقعة ، وهى ليست من الحقيقة لا فى كثير ولا فى قليل ، وكان لمثل هذه الأقاصيص الخيالية شىء من الأثر فى نفس الصبى . فنشأ يخاف من العفاريت ومن الجن ومن القطط .

وفى الحق أن القرية أثرت فى نفس الصبى آثارا مختلفة ، فكانت أقاصيصها توحى إليه بخيالات كثيرة لا أساس لها من الواقع ، وأثرت زروعها ومشاهدها الطبيعية من حوله فى حِسِّه ، فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعى ويحب الريف ومناظره حبا يملك عليه ذات نفسه : مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلها الشقراء ، والقطن ولوزه يتفتح وتتدلى منه خُصَله البيضاء ، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة فى السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء والمياه تتهادى فى القنوات ، والبشنين كالطاووس يزدهى بألوانه ، والورود تمايل مع النسيم مذيعة

سيرٌ شذاها العطر ، وسقاة الأرض – فى سكون الليل الجاثم على الحقول – يتغنون على السواقى ببعض الأغانى الريفية الساذجة التى طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين وكل ذلك كان يَسْكب فى نفس الصبى متاعا رائعا ما بعده متاع .

وكان الصبى فى هذه الأثناء يغدو إلى المدرسة الأولية شاعرا بما فيها من تنافس محتدم بين الذكور والإناث ، وبتنافس آخر كان لا يقل عنه إحتداما ، بل لا ريب فى أنه كان يزيد عنه حماسة واشتعالا ، تنافس كان متقدًا بين أسرته وأسرة أخرى كان منها عمدة القرية ، أما أسرته فكان منها شيخ البلد ، ومع أن أواصر القربى كانت وثيقة بين الأسرتين ، لكثرة ما بينهما من مصاهرات كانت كل منهما تنافس الأخرى منافسة حادة ، ولا يشترك فى هذه المنافسة الرجال والشباب فحسب ، بل أيضا الصبية والناشئة . وكان لذلك آثار طيبة فى اهتمام كل صبى من الأسرتين بأن يتفوق على صبيان الأسرة الأخرى فيما يحفظ من القرآن الكريم والأناشيد وفى الحساب وغير الحساب .

وكان هذا التنافس يعود على الأسر فى قرى الريف بنتائج طيبة كثيرة ، فالآباء ينشطون فى الإنتاج الزراعى ليكون لهم قصب السبق فيه ، وحتى الصبية من أبنائهم ينشطون فى المدرسة الأولية حتى يملأوا نفوس آبائهم غبطة بهم ، وحتى ينالوا لأسرهم بعض النقط فى سباق التنافس الداخلى ، وهو سباق تمتد أشواطه إلى خارج القرية حين تتحول الناشئة من المدرسة الأولية إلى معهد دمياط الدينى أو إلى مدارسها المختلفة .

والشىء الوحيد الذى دها الصبى من القرية جاءه مما كان يسودها من جهل بالطب والأطباء ، فقد رمدت عينه اليسرى وهو فى المهد ، وأمه لا تزال تضمه إلى صدرها ، فلم يذهب به أبوه إلى طبيب عيون ، إذ لم يكن فى دمياط – على ما يبدو – طبيب عيون فى العقد الثانى من القرن الحاضر ، فذهب به الأب إلى

طبيب كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم وكان على هذا الطبيب حين رأى عين الصبى الرمداء أو المريضة وأن سحابة هبطت عليها أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون . وبدلا من ذلك أجرى للصبى عملية فى عينه ، وظن الأب أنها نجحت وهى لم تنجح فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين ، وفقد الصبى عينه اليسرى إلا بصيصا ضئيلا .

وكل ذلك حدث والصبى فى المهد لا يدرى عنه أى شىء ، فلما أخذ يخطو خطواته الأولى ومضى فى الحياة لم يلاحظ هذا القصور فى بصر العين اليسرى أو لعله لاحظه بوضوح ، غير أنه لم يهتم به أى اهتمام ، إذ كانت عينه اليمنى سليمة ونظره فيها قويا كاملا . وربما كان ذلك من أخف الأشياء التى كانت تحدث لأبناء الريف بسبب الجهل وانعدام الرعاية الصحية ، وكم من أطفال وصبية ريفيين فقدوا لا عينًا واحدة ، بل العينين معا ، بسبب نقص المعرفة والرعاية الطبية وسريان الجهل حينئذ فى القرى وانتشاره .

وكان الصبى يختلط بلداته من أهل القرية ، ولم يكن يقع فى نفسه أبدا أن هذا الصبى أو هذه الصبية من أسرة ميسورة ، وذاك الصبى أو تلك الصبية من أسرة متواضعة ، لسبب مهم ، هو وشائج القربى والرحم بين الفئتين من الأسر . مع أنه كان يلاحظ ما بينهما من فروق فى مآتم الأحزان واحتفالات الأفراح ، ففى المآتم كان يرى أهل الميت فى الأسر المتواضعة يفرشون القَشّ على الأرض أمام بيوتهم لمن يشاء الجلوس من المعزين ، بينما كان أهل الميت فى الأسر الموسرة يضعون أمام بيوتهم كراسى لجلوس المعزين .

وكان الصراخ والعويل يرتفعان فى منزل الميت منذ صعود روحه إلى بارئها الأعلى ، غير أن نساء الأسر المتواضعة ربما بالغْنَ فلطمن الوجوه وقرعن الصدور على موتاهم بينما نساء الأسر الموسرة يغلب أن يكظمن حزنهن . يصرخن ولكنهن

لا يخمشن الوجوه ، وكثيرا ماكن يتركن ذلك لندابات محترفات يضعن على وجوههن شيئا من صبغ النيلة ،ويتمادين فى لطم خدودهن وقرع صدورهن - وربما استخدمن فيه حجرا - قرعا شديدا . وعادة يتقدم النعش الجنازة ويتبعه المعزون حتى إذا وورى الجثمان فى التراب أخذ أهله يتقبلون العزاء .

ويعود المعزون إلى مأتم الميت أمام داره ، فيتناولون بعض الطعام.وبعض دور القرية كانت تخرج منها إلى مأتم الميت صينية عليها بعض اللحوم أو الطيور المطبوخة أو ألوان من البقول مع كمية من الأرز وبعض الأرغفة مؤازرة لأهل الميت فى مأتمهم وفى استضافة من يشتركون فى جنازة الراحل من أهل القرى المجاورة ومن أهل القرية نفسها . إنه مأتمهم جميعاً وهم يشتركون فيه كل حسب وسعه وقدرته . وتظل القرية محزونة على فقيدها أياما ، والفقهاء يغدون ويروحون إلى مقبرته لتلاوة بعض القرآن . وقد يصنع أبناء الميت أو أهله له «صمديّة» اذ تتجمع طائفة كبيرة من القرّاء لتتلو له عند مقبرته أو فى بيته أو فى المسجد سورة الإخلاص مائة ألف مرة رجاء تقبله عند ربه .

وعادة يذهب أهل القرية لزيارة موتاهم كل يوم جمعة حاملين معهم شيئاً من سعَف النخل الأخضر ، ليضعوه فوق القبر ، وبعض الفطير والبلح أو التمر ليفرقوه على بعض المحتاجين حسنة على الميت . وكان الصبى يبصر ذلك كله ويؤثر فى نفسه . وخاصة أنه تصادف أن إخوة له توفوا وهم لا يزالون فى براعمهم قبل أن تتفتح تلك البراعم عن أزهارها الغَضّة الناضرة ، وكانت أمه لا تزال تذكرهم وتبكيهم أحيانا ، وسرعان ما كانت تكفكف من دموعها راضية بقدرها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وكانت أفراح القرية تشدُّ الصبى بأكثر مما كانت تشده المآتم ، إذ كانت الزغاريد تنطلق من بيت العروس والعروسة ، فيشعر كأن القرية جميعها ترقص

طرباً. وكانت تسبق ليلة زفاف العروسين أو كما كانوا يسمونها ليلةَ «الدخلة» ليلة تعرف باسم ليلة «الحِنَّة» والحنَّة مسحوق يباع عند العطارين، كانوا يشترونه منهم، ويمزجونه بقليل من الماء حتى يصبح كالعجين، ويشدُّونه بأربطة على كفوف العروسين وأقدامها حتى الصباح، فيفكون الأربطة، وتبدو الكفوف والأقدام أشد حمرة من الياقوت. وقد يستخدمون فى وضع الحنة بالأكف والأقدام مناقيش، فتبدو فى هيئة أكثر جمالا، ويشترك فى هذا الصنيع جميع العرسان والعرائس فى الأسر الموسرة والمتواضعة.

وكثير من الأسر الأولى كان يبالغ فى ليلة الدخلة والاحتفال بها، إذ عادة تقيم الأسرة مأدبة حسب طاقتها المالية، وقد تستقدم جوقة موسيقية وأخرى من «العوالم» لزفاف العروسين، بينما تكتفى الأسرة المتواضعة بعشاء لا يكلف كثيرا، وببعض العوالم المغنيات ممن لا يبالغن فى أجورهن. ويستقبل العروس ضيوفه على باب داره.

وفى الأسر الموسرة كانت الموسيقى تعزف منذ الغروب، وتُمَدّ مائدة العشاء، ويبدأ الزفاف بعد انتهائه، إذ تأتى العروسة من دارها مع أمها، ويستقبلها العروس، وتتقدمهما العوالم المغنيات يضربن على الدفوف والصنوج حتى «الكوشة» وهى أريكة مرتفعة مزخرفة، عليها بعض الزهور وبعض المصابيح المشتعلة، ويجلس عليها العروسان بينما تغنى العوالم وهن يضربن على آلات الطرب. وطوال هذا الزفاف ينثر الأهل والأقارب على العروسين مايسمونه باسم «النقطة» وهى نقود معدنية وفضية، يحيون بها العروسين.

وزفاف العروسين فى الأسر المتواضعة صورة مصغرة من ذلك كله، فالعوالم قليلة محدودة، وبدلا من أن يكون زفاف العروس جميعه بجوار زوجته على الكوشة يدعوه أصدقاؤه لزفافه فى طرقات القرية وشوارعها وهم فى أثناء ذلك يحيونه بأغان

ورقصات ريفية . ويعود إلى عروسته . ويجلس بجوارها قليلا ويتناول معها كوبا من شراب ، ثم ينهضان ويتركان المدعوين بين التهليل والتصفيق .

وكان الصبي يفرح فرح لداته ورفاقه في القرية بعيد الفطر وعيد الأضحى لما يلبس فيهما من ثوب وحذاء جديدين ، ولاختلافه مع صبية قريته إلى أراجيح بسيطة ، غير أنها كانت عندهم أراجيح بديعة . وبالمثل كان يفرح الصبية بعيد شم النسيم لما تهيئ أمهاتهم لهم فيه من بيض ملون ألوانا مختلفة بين أحمر وأخضر وأصفر وأزرق ، وكانوا يلعبون به فيما بينهم عن طريق قرع بيضة لصبي ببيضة صبي آخر ، ومن كُسرت بيضته عُدَّ مهزوما . وإن لم تكن معه بيضة ثانية ذهب إلى أمه وجلب منها بيضة ، وعاد إلى النزال والعراك مع رفاقه .

ولم يكن الصبي يفرح بموسم كفرحه بموسم شهر رمضان إذ كان يعجب فيه إلى أقصى حد باشتعال مواقد النار بعد العشاء ساعات متوالية ، لما هو معروف من أن « السحور » في الريف يُعَدُّ الأكلة الرئيسة في رمضان ، فكانت الكوانين تشتعل بعد العشاء وتشتعل المواقد النحاسية لصنع طعام السحور ، وكان الصبي يجد في مرأى هذه النيران لذة كبيرة وخاصة حين ينظر إلى وهجها وإلى أطرافها وهي تتلون ألوانا شتى ، وكأنما يرنو إلى قوس قزح تحت بصره .

وكانت أمه كلما أمرته بالذهاب إلى النوم تعلل لها بأنه ينتظر السحور وهو إنما كان في الواقع ينتظر المسحراتي ، إذ كان مشغوفا بسماعه ، وهو يمسك بطبلة في يده ويضرب عليها بجلدة في يده الأخرى فترنُّ ويمتد رنينها ، وهو لا يمل ضربا لها وجلدا ، مع ترديده لأغان رمضانية يحاول بها وبضربه المتوالي على الطبلة أن يوقظ النوّام ، حتى يتهيئوا لتناول السحور .

وفي بعض المناسبات الكبرى التي كانت تمر بالقرية كسبوع زفاف لعروسين وهو اليوم السابع له أو سبوع مولود أو ختان صبي أو قدوم حاج وسلامته في رحلته

كانت تقيم بعض الأسر احتفالا كبيراً لشخص يسمى الشاعر ، وتدعو أهل القرية والقرى المجاورة لسماعه ، ولم يكن شاعرا بالمعنى المعروف ، وإنما كان منشدا لقصة الهلالية ، وهى قصة شعرية مطبوعة فى نحو أربعة أجزاء ، تحكى بشعر عامى قصة خروج بنى هلال العامريين من الجزيرة العربية إلى مصر فى عهد الفاطميين وترحيلهم لحرب أعدائهم فى تونس والمغرب .

وفى القصة بطلان عربيان هما أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى ، ولكل منهما بطولاته ومغامراته الحربية ، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الربابة ، وهى آلة موسيقية ثنائية الوتر كثيرة الثقوب ، والشاعر يحرك عليها قوسا فى أثناء نشيده ، ليستعين فى إلقاء القصة أو بعض أجزائها بألحانه .

وكانت هذه القصة تُنْشَدُ وتتردد منذ عهد الفاطميين فى القرى المصرية لصرف المصريين عن التفكير فى الشئون السياسية . ومنذ هذا التاريخ البعيد أى منذ نحو تسعمائة عام كان بعض القرى المصرية يشايع أبازيد بطل بنى هلال ، وبعضها يشايع دياب بن غانم بطل بنى زغبة ، أو بعبارة أخرى كان بعضها هلالية وبعضها زغبية .

ولم تكن توجد فى مصر قريتان متجاورتان وهما هلاليتان أو زغبيتان بل دائما توجد قرية هلالية وبجوارها قرية زغبية أو العكس . وكأن ذلك كان تعبيرا عما كان بين القرى المتجاورة من تنافس . وكان الشاعر يلاحظ ذلك ، فإذا كانت القرية التى دعته لإحياء احتفال بها هلالية أعلى ورفع من شأن أبى زيد وبطولته ، وإذا كانت زغبية أعلى ورفع من شأن دياب بن غانم وشجاعته . وكانت له طريقة خاصة فى إلقاء أناشيد القصة ، فحين يهجم البطل الخاص بالقرية تحس كأن الشاعر نفسه هو الذى يهجم بربابته أو قوسه وبسهام أناشيده . فهو منشد وممثل معا ، ومن هنا كانت تشتد حماسة الصبى ورفاقه والنظارة جميعهم .

وكان يحدث كثيرا حين يكون الشاعر فى قرية هلالية مثلا ويهبط بدياب بن غانم درجة أو درجتين أو درجات عن بطولة أبى زيد أن يثور المدعوون من أهل القرية الزغبية المجاورة . وكانت قرية الصبى هلالية وكان مثل صبية قريته وأهلها هلاليا . ودفعه ذلك وهو فى سن صغيرة إلى أن يقرأ قصة الهلالية ويشغل نفسه بالحديث عن بطولات أبى زيد لرفاقه من الصبية إذ كان يشعر بانتماء قوى إليه وإلى الهلالية .

وغريب أمر الإنسان حتى فى صباه ، فهو دائما يحاول الانتماء إلى أى وطن أو أى شيء ، وإن فى انتماء القرى المصرية لبطلى قصة الهلالية العربية : أبى زيد ودياب بن غانم ما يشير بوضوح إلى شعور المصريين الدائم المستقر فى أعماقهم بانتمائهم إلى العرب والعروبة ، وليس بصحيح ما يظنه بعض المعاصرين من أن شعورهم بهذا الانتماء حديث فهو قديم منذ مئات السنين . وقد ظلت القرى المصرية تحس بقوة هذا الانتماء العربى إلى الهلاليين والزغبيين ، حتى تكونت عندنا الأحزاب المصرية منذ أوائل القرن الحاضر ، واحتدم هذا الانتماء الحزبى الجديد مع نشوء حزبى الوفد والأحرار الدستوريين ، ثم مع ما جدّ بعدهما من أحزاب .

ولم تكن بطولات أبى زيد الهلالى وحدها هى التى ينتظر رفاق الصبى منه أن يحكيها لهم ، فقد كانوا ينتظرون منه أيضا أن يقص عليهم آخر الأخبار فى الحرب العالمية الأولى لهذا القرن ، وكان قد أخذ يستطيع قراءة الصحف ، وكان أبوه يحضر معه فى أكثر عوداته من دمياط إحداها ، فكان الصبى يقرؤها ويروى لِلداته ما فيها من أخبار الحرب . وذاع ذلك عنه فى القرية حتى كان الفلاحون يتعرضون له بالسؤال عن أخبارها ، وأيضا كانت صديقات أخته الكبرى ينادين عليه وهو مار بدورهن أو يستوقفنه ويسألنه عن الحرب وآخر أخبارها . وكان مثل كل القرية بل مثل كل المصريين حينئذ هواه مع تركيا وألمانيا ، وأخذ يشعر بغير قليل من البؤس

حين بدا فى الأفق أن الحلفاء هم الذين سينتصرون وأن كفتهم هى الراجحة .

وكما كان يستروح الصبى الحديث واللعب مع لداته فى المدرسة والقرية كان يستروح الجلوس والحديث إلى كثيرين من المتقدمين فى السن ، وخاصة الشيوخ من أهله رجالا ونساء ، لما يجرى على ألسنتهم أحيانا من حكم وأقوال عجيبة سديدة ، مع أنهم يعيشون على الفطرة . ويبدو أن هذه المعيشة نفسها هى التى تجعل أقوالهم وحكمهم صحيحة قويمة ، لأنها لا تنبع من أذهان عقدتها الثقافات والقراءات الكثيرة للكتب ، وكأن ذلك من شأنه أن يضع حُجبا وأسدالا على الأفكار فلا تبدو مكشوفة للعيان بحيث يحيط بها الذهن إحاطة تامة من جميع جوانبها ، إذ كل فكرة تتشابك مع أفكار كثيرة حتى لتوشك أحيانا أن تطمسها .

وما أشبه أفكار هؤلاء المسنين الفطريين الذين كان يُكثر الصبى من الاستماع إلى أحاديثهم وما يبثون فيها من الحكم بأشجار تنمو فى الطبيعة متباعدة ، فلكل شجرة تربتها لا تشركها فيها شجرة أخرى ، ولها هواؤها الذى تتنفس فيه بملء رئتيها ، ولها حظها الكامل من الشمس وحرارتها وأضوائها . أما أفكار المتمدينين ، وخاصة من أصحاب الثقافة الممتازة ، فأشبه بغابة ملتفة ، تتداخل أشجارها وفروعها وأغصانها حتى ليختفى بعضها عن الأنظار ، فلا تراه أو لا تكاد تراه . وحقًّا كان هؤلاء المسنون والشيوخ يعيشون فى القرية معيشة ساذجة ، ولكن من الحق أيضا أنهم كانوا يعيشون بعيون تبصر كل ما حولها فى الحياة دون خداع أو نفاق مما يَرِينُ على حياة الناس فى المدن .

وكان الصبى حين يذهب ظهرًا إلى مزرعة جده المجاورة للقرية يرى زوجات بعض الفلاحين العاملين فى الأرض قادمات إلى أزواجهن ، يحملن إليهم الغداء ، وهو فى أقل الأحايين عدس أو فول نابت وبصلة أو بصلتان ورغيف أو رغيفان أو أكثر وفى أغلب الأحايين يكون الغموس مِشًّا ، ومعه بصل ، وقد يستعيض الزوج

عن البصل بشيء من « السَّريس » الذى ينبت بكثرة مع البرسيم.

ويقبل أهل الريف جميعا موسرين ومعسرين على المِشّ ، وهو يعد بخاصة عند الأسر الرقيقة الحال الطعام الرئيسى للفطور والغداء وهو جبن متروع الدهن مخلوط بماء وملح يوضع شهورا فى بلاص أو جرَّة ، وأهل القرى يأتدمون به ، وكان الصبى يحبه ، وكثيرا ما كان يتخذه إداما فى طعامه . وكان يحدث أحيانا لبعض الفلاحين أن تتلف الديدان وندوةُ أغسطس المزروعَ من القطن ، فلا يستطيع الفلاح أداء إيجار الأرض المضروب لمالكها ، فيستدين ، ولا يبقى طعاما له طوال العام سوى المشّ المالح وبعض ما تنبته أرضه من الجرجير والفجل وبعض ما يكون فيها من النخل والبلح القليل .

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالا بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية ممن كانوا ينتسبون إلى الشيخ أبى المعاطى فى دمياط أو الشيخ أبى خليل فى محافظة الشرقية أو غيرهما من أصحاب تلك الطرق القريبين أو البعيدين . وفى العادة كان لهذه الطرق فى كل قرية أو فى كثير من القرى تلاميذ أو مريدون ينزل عليهم صاحب الطريقة الصوفية ليأخذ لها العهود .

وكان يتجمع كثيرون من أهل القرية كبارًا وصغارًا فى دار المريد أو فى دار شخص آخر باتفاق المريد معه . وبعد صلاة العشاء يجلس الشيخ ويأخذ الناس فى السلام عليه وطلب الدعاء منه ، وما يلبثون أن ينهضوا فى صفين متقابلين يمنة ويسرة وهم يقولون : «حَىّ حَىّ» أى الله ، ومنشد ينشد . وتشتد الحماسة بالذاكرين ، ويشتد الوجد ، ويظلون على هذه الحال ساعات متواليات ، والشيخ فى أثناء ذلك يأخذ العهود على المريدين الجدد الذين جاءوه يبغون الانتماء إلى طريقته الصوفية .

وكان الصبى لا يترك احتفالا من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على

الذاكرين والاستماع للمنشد ، ولم يكن يعى حينئذ أن الاتصال بطريقة صوفية وتحول شخص إلى تلميذ فيها أو مريد لشيخ معناه ضرب من الانتماء الروحى ، وهو انتماء انتشر مع الطرق الصوفية فى العالم الإسلامى منذ القرن السادس الهجرى ، إذ أخذ شيوخ هذه الطرق ومريدوهم يطوفون البلاد الإسلامية مدرِّبين من يتبعونهم على الالتزام بأوراد معينة ، وهى أدعية طويلة ولكل صاحب طريقة دعاؤه أو ورده الخاص .

ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره فى غربىّ أفريقيه وأواسطها وشرقيها ، وفى أواسط آسيا وديار المغول ، وفى الهند وما وراء الهند من الملايو وأندونيسيا والفليبين ، غير أن المستعمرين حاربوا رجاله ، وكادوا يفقدونه جُلَّ أهميته الأولى . وكان من أكثر ما يلفت الصبى فى حلقات الذكر التى كانت تقام فى قريته أن بعض أهلها كانوا يطلبون من الشيخ الصوفى تعويذات وتمائم ، ولاحظ أن أباه كان ينكر ذلك ، ولما سأله قال له : إن التصوف وطرقه الصحيحة بَراء من هذا كله ، والتصوف السليم إنما هو نسك لله وذكر وعبادة دون اعتقاد فى تمائم وتعويذات لا تنفع ولا تشفع .

٣

وبينما كان الصبى يخطو فى السنة التاسعة من عمره ترك الأب القرية واتخذ دمياط دار مقام له ، وكانت دمياط عالما جديدا للصبى بدكاكينها وحوانيتها التى كانت تضاء فى المساء بمصابيح الكهرباء ، وكان منظر أضوائها يبهج نفسه بهجة كبيرة . وسكنت أسرة الصبى فى دار من بابها لم يسكن معهم فيها أحد ، ولفتته فيها مصابيح الكهرباء المدلاة من السقوف كما لفته الماء ينزل من مواسيره صافيا خاليا من أى كُدْرة . وكان الصبى ينام فى غرفة منفردًا وحده ، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أخذ يشكو إلى أمه من أنه يصحو ليلا ، فيجد بجانبه جسما ممتدا ، ويضع يده فوقه ، فيحس كأنه جسم عار . وتراجع الأم أباه الشيخ ، فيقول لها إنه إما هر وإما هرة . ويعود الصبى إلى النوم بالغرفة فى الليلة التالية ، ويقرأ قبل أن ينام – كما علمته جدته فى القرية – آية الكرسى ست مرات لحفظه وحفظ المنزل ، ويدعو فى

نهايتها بهذا الدعاء ، أقسمت عليكم يا خدام هذه الآية : آية الكرسى بحق الذى خلقكم وصوّركم أن تحفظونى وتحفظوا هذه الدار من الأذى والضرر طوال ليلتى هذه حتى طلوع الشمس . وينام مطمئنا ، غير أنه لا يلبث أن يستيقظ ويحس بجسد ممتد بجانبه ويبيت مرتاعا فزعا ، ولا يلبث أن يستسلم إلى النوم .

وفى الصباح يعود الصبى إلى الشكوى لأمه ، وتبحث الدار فى المساء غرفة غرفة ، لعلها تعثر على هذا الهر المزعوم ، ولا تجد شيئا . وتذكر ذلك للصبى ، ويعود إلى تلاوة آية الكرسى ودعائها ، حتى إذا استيقظ ليلا أحس بالجسد ملتصقا به ، ويشكو فى الصباح إلى أمه ، فتنقله فى الليلة التالية من غرفته إلى غرفة أخرى ، وتنام فى فراشه ، فلا ترى شيئا ، وبالمثل لا يرى الصبى شيئا فى فراشه الجديد .

وتعيد الأم الصبىّ إلى غرفته بعد أن تأكدت بنفسها من أنه لا توجد بها روح ، ويعود الصبى إليها خائفا ، ويقرأ قبل نومه آية الكرسى مع دعائها ست مرات ، ويلتف فى اللحاف بحيث لا يبين منه أى شىء ، ويستيقظ فى أثناء الليل ، ويعاوده الشعور بالجسد الملتصق به ، ويخشاه فلا يمد يده عليه ، بل يضعها فوق رأسه حتى الصباح ، فيهرع إلى أبيه مؤكدا له أن الجسد العارى كان يلتصق به طوال الليل .

ويبادر الأب إلى اتخاذ قرار هو ترك الدار واستئجار دار جديدة ، مع اعتقاده أن هذا كله إنما هو وهم من الأوهام ، لا واقع له ولا حقيقة ، إذ كان لا يؤمن بالأوهام ولا بالخرافات . ويفكر الصبى فى ذلك بعد أن شبّ عن الطوق ، ويقول فى نفسه : ربما كان حقا وهما جاءه من قصص الجن والعفاريت التى كانت تحكيها له جدته ، أو ربما كان هذا الجسد يده التى كان يتوسدها من الخوف ، فإذا استيقظ ومدها بجانبه ، وهى مخدّرة ، ولمسها بيده الأخرى وهو بين اليقظة والنوم

ظنها جسدًا آخر ممتدًا بجواره ولا جسد ولا روح ولا عفريت من الجن ، إنما هي قصص الجان في القرية جعلته - أو جعله الخوف - يظن أن يده المخدرة جسدا ينام بإزائه . ومن الغريب أن هذا الوهم الذي تمكّن من خيال الصبي وهو صغير ، وقصة العفريت الذي كان يتمثل لمؤذن القرية هرًا في المسجد ، كل ذلك جعله - فيما بعد - يخاف من القطط خوفا شديداً فلم يأنس يوما لقط أو هرة .

وكانت أمنية أبويه أن يصبح شيخا ، وكانا يرددان على سمعه أنهما وهباه للعلم ، وكلمة العلم عندهما إنما تعني العلم الديني الذي يحمله في صدورهم شيوخ الأزهر الشريف . ولذلك لم يتردد أبوه في أن يدخله كتّابا يحفظ فيه القرآن الكريم .

وكان بدمياط مقرئ معروف بشدته في تحفيظه القرآن للأولاد ، وكان كتّابه ملحقا بجامع يسمى جامع البحر ، كان به المعهد الديني وحلقات دروسه . وأخذ الأب ابنه إلى هذا الكتاب ، ورآه الصبي مفروشا بحصير ، والصبية يجلسون عليه وفي أيدي بعضهم ألواح يحفظون ما سطروه فيها من الذكر الحكيم ، وفي أيدي البعض الآخر مصاحف يتلونها وهم جميعا يهتزون ، ورأى المقرئ أوكما كانوا يسمونه « سيدنا » جالسا على حَشِيَّةٍ صغيرة وصبي يسمّع عليه محفوظه مهتزًا بانتظام . ولما رأى المقرئ أباه وقف للسلام عليه ، فقدم له ابنه وأوصاه به وانصرف .

وأخذ الصبي مكانه بين رفاقه ، وما إن مرت عليه بضعة أيام حتى لاحظ سيدنا سرعة حفظه ، إذ رآه حين يُلزمه بحفظ صحيفة أو أكثر من المصحف الشريف يبادر سريعا إلى تسميعها غيبًا دون أن يخطئ في حرف منها ، فرأى أن يجعلها له صحيفتين ، وهما يعنيان في تقسيمات الذكر الحكيم نحو ربع ، ورأى « سيدنا » أن يبدأ الصبي الحفظ من أول سورة البقرة . وفي كل يوم كان الصبي يحفظ ربعا كاملا .

وكان فى الكُتّاب نحو عشرين صبيا مختلفى الأعمار من التاسعة إلى نحو الخامسة عشرة ، وكلهم يحاولون استظهار القرآن ، وكلهم يخافون من « سيدنا » خوفا شديدًا ، إذ كانت بيده دائما مقرعة ، وكانت عادته أن يدعو أحد الناشئة لتسميع « اللوح » أو الواجب اليومى ، وأحيانا يدعوه لتسميع « الماضى » وهو ما حفظه قبل ذلك . وكان الصبى مثل أقرانه كلما حفظ واجبه تلاه عليه ، وقد يتلو عليه قسما من « الماضى » وكان يجلس فى التسميع – مثلهم – أمام « سيدنا » وقد وضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى ، وباطن القدم اليمنى مكشوف ، فإذا أخطأ أو تعثر لم يقل له « سيدنا » تعثرت أو أخطأت وإنما تنزل المقرعة توًّا على باطن قدمه ، فيتنبه إلى أنه أخطأ .

وكان يلفت الصبىَّ رفيق له تعوَّد إذا قرأ واجبه أو « ماضيه » أن لا يتبين أحد ما يقرؤه ، فهو يكرّه كرًّا سريعا ، بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف بوضوح ما يقرأ ، فضلا عن أن يتبعه فى آية من الآيات . ومع ذلك كان إذا قرأ على « سيدنا » بهذا الكر السريع يهوى بالمقرعة على باطن قدمه من حين إلى آخر ، وكأنه عرف خطأ سقط على لسانه ، وفى واقع الأمر كان يريد أن يخيف رفاقه ، وأنهم إذا قرأوا كرًّا على غراره فلن يفلتوا منه ومن مقرعته ، فأولى لهم أن يقرأوا قراءة متأنية ، حتى يأخذوا الفرصة الكافية لتذكر الكلمات والآيات .

وكان الصبى يرهب « سيدنا » ومقرعته رهبة شديدة ، وكان يوالى يوميا عليه تلاوة الربع الذى استظهره تسميعا ، وقلما يخطئ فيه أى خطأ ، وكيف يخطئ وقدمه اليمنى ملقاة على ساقه اليسرى مكشوفة للمقرعة ، وقد تهوى فجأة دون أى تنبيه أو تحذير ، وبالمثل يتلو « ماضيه » على سيدنا فقلما يزلّ لسانه أو يلحن أى لحن . وكانت العادة فى هذا الكُتّاب أن يتناول كل صبى غداءه فى داره ، ولكن بعد أن يحفظ واجبه اليومى ويسمعه على سيدنا ، فإذا لم يحفظه ولم يسمعه حتى نهاية اليوم

ظل فى الكُتّاب لا يبرحه ، وظل دون غداء وأمعاؤه تتلوى جوعا ومسغبة .

ويوم واحد لا يزال الصبى يذكره إذ أبطأ فى حفظ الربع أو الواجب اليومى ، وكان الربع الثانى من سورة مريم ، ولا يدرى الصبى بالضبط السبب فى أنه تعذر عليه أن يحفظ هذا الربع قبل صلاة الظهر كعادته فى الأيام السابقة ، فتأخر فى حفظه حتى صلاة العصر ، وبذلك تأخر غداؤه إلى أن انصرف مع رفاقه من الكتاب ، وكأن ذلك كان درسا له ، فلم يعد – بعد – يتأخر أبداً فى حفظ واجبه اليومى ، مما جعله يتم حفظ القرآن جميعه فى أقل من عام ، وكان يوم إتمامه له يوم فرح فى داره . احتفل به أبواه وأهدى الأب إلى « سيدنا » بعض الهدايا المعتادة فى مثل هذه المناسبة .

وقد يُظن أن الصبى بكَّر فى حفظ القرآن الكريم بالقياس إلى رفاقه فى كتاتيب القرى والمدن ، ولكن من الحق أن الكثرة كانت تحفظه بين سنتها العاشرة مثله وسنتها الثانية عشرة . وهو لا شك حصيلة كبرى كان ينبغى أن يلتفت إليها القائمون على التعليم الابتدائى ، لأن الناشئة فيه تتم تعليمها فى سنتها الثانية عشرة وما يحصِّلونه يبدو شيئا ضئيلا بالقياس إلى ما كان يحصله أندادهم بجيل الصبى فى الكتاتيب المصرية ، مما يظهر بوضوح أننا نهدر فى تعليمنا الابتدائى قدرات عقلية لأبنائنا فى سنواتهم المبكرة ، قدرات على التحصيل لا نستغلها بالصورة المأمولة .

ومن المؤكد أن الناشئة فى جيل الصبى كانت تتعود – بدأبها على حفظ القرآن الكريم فى بواكير حياتها – بذل الجهد الشاق فى التحصيل والدراسة . ولعل نبوغ مفكرينا العظام فى القرن الماضى وشطر كبير من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعوّدوه فى الكتاتيب من بذل كل طاقاتهم فى استظهار الذكر الحكيم ، وكان هذا البذل والجد فى التحصيل يظل ملازما لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى يتموا تعليمهم الجامعى أو العالى .

على كل حال استظهر الصبي القرآن الكريم في سن مبكرة ، وكان يتلوه تسميعا دون أي لحن ، وظل شهورا متوالية يجوّده ، وعلى الرغم من أنه كان في العاشرة من عمره كان يتوقف مرارا متأملا في معاني بعض الآيات الكريمة ، من ذلك تأمله وتفكيره في آية سورة التغابن : (يأيّها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) فقد كان كلما تلا هذه الآية سأل نفسه متعجبا هل تصبح الزوجة مبغضة لزوجها والولد مبغضاً لأبيه ؟ وكان مصدر تعجبه أنه ينظر فيما حوله فيجد أبويه متعاطفين متوادين ، وكانت الأم تصغر الأب بسبع سنوات ، وكانا متآلفين تآلفا شديداً ، وكان يكن لها – وتكن له – الاحترام .

وكان الصبي يتساءل تُرى هل هذا الاحترام هو النبع الغزير لما بين أبويه من توادٌ وتعاطف ؟ . . وظل الصبي كلما قرأ آية سورة الروم العظيمة : (ومن آياته أن خلقَ لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ارتسمت في ذهنه صورة أبويه . وتدور به الأيام ويعرف أن بغض الزوجة لزوجها شذوذ لا يقاس عليه ، وأن من نعمة الله على الأزواج أن ملأ قلوب زوجاتهن لهن بالبر والعطف والمودة والرحمة إلا قليلا جداً ، فالكثرة الغالبة منهن يكلأنهم ويرعينهم ويعرفن لهم حق الزوجية وأبوتهم لأبنائهن ، وما أعظم الفرق بين زوجة تحب زوجها وتحمل له الودّ والعطف والحنان وزوجة تكره زوجها وتحمل له الموجدة ، وأيضا ما أعظم الفرق بين زوجة راضية تهب زوجها وأسرتها الهناءة والسعادة وزوجة كارهة تهب زوجها وأسرتها الشقاء والتعاسة .

ولم يكن الصبي يفهم كيف ينقلب الابن مبغضاً لأبيه ، إذ لم يكن قد قرأ التاريخ وعرف منه أن من الابناء من تآمروا على آبائهم واشتركوا في سفك دمائهم طلبا للحكم والسلطان وعز الرياسة . وما أبأس الابن حين يتحول مبغضاً لأبيه الذي سقاه من ظمأ وأطعمه من جوع ورعاه ورباه . وما أعظم القرآن في وصيته لكل

ابن أن يرعى حقوق أبويه حتى أنفاسها الأخيرة على نحو ما تصور ذلك آية سورة الإسراء : (وبالوالدين إحسانًا إمّا يبلغنّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفِضْ لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمْهما كما ربّيانى صغيرا) ، وكان الصبى كلما تلا هذه الآية الكريمة أكبر أبويه ، وعرف لهما قدرهما وحقهما ، وشعر إزاءهما بإجلال عظيم .

وما هى إلا بضعة شهور حتى أخذ الصبى يحسن تجويد القرآن الكريم ومعرفة مخارج الحروف فيه بدقة بين الجهر والهمس واللين والشدة ومعرفة الإدغام فيه والغنّات وقياس المدّات . ولم يلبث أبوه أن ألحقه بالمعهد الدينى فى دمياط ، وفاء بهبته للعلم ، وكان العام مكملا لأعوام الثورة التى أشعلتها مصر ضد الإنجليز الغاشمين منذ سنة ١٩١٨ حين شكّل سعد زغلول فى ١٣ من نوفبر وفداً برياسته وعضوية عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لمقابلة « ريجنالد ونجت » ممثل إنجلترا فى مصر نائبين عن شعبهم فى تقديم مطالبه الوطنية . ولم تستجب إنجلترا ولا ممثلها لشىء من هذه المطالب . وكان قد تألف فى نفس اليوم بزعامة سعد حزب الوفد الذى سيظل ثلاثة عقود من السنين الممثل الوحيد المفوّض للأمة المصرية .

وحمل سعد أمانة رياسته بقوة ومضى يستثير الشعب ضد عدوه الغاصب الأثيم ، فنفاه الإنجليز مع بعض صحبه إلى مالطة فى مارس سنة ١٩١٩ وغضبت مصر وثارت جماهيرها فى جميع مدنها رجالا ونساء وشيوخا وشبانا وعمالا وفلاحين ، وعرّضوا صدورهم لرصاص الإنجليز غير مبالين ، ومثّلوا بكثيرين من الإنجليز وازداد سفك دمائهم ، مما اضطرهم إلى رد حرية سعد إليه وسماحهم له بالسفر مع وفد إلى مؤتمر الصلح فى باريس لعرض قضية مصر عليه ، وهناك أقاموا العراقيل ضده ، وصُدم سعد ورفاقه بإعلان المؤتمر فى مايو سنة ١٩١٩ الاعتراف بحماية إنجلترا لمصر ، وكأنما ذهبت جهوده هباء . وظلت إنجلترا فى مناوراتها وتألفت

فى مارس سنة ١٩٢١ وزارة برياسة عدلى يكن ، ودعيت مصر لمفاوضة الإنجليز تمهيدا لعقد معاهدة بين الطرفين فأبرق عدلى إلى سعد زغلول رئيس الوفد وكان بباريس يعلمه بالنبأ ويدعو الوفد إلى الاشتراك معه فى المفاوضات .

وعاد سعد إلى مصر وإلى استئناف الجهاد ، واستقبلت مصر ابنها البار استقبالا يندر أن يظفر به زعيم من زعماء الشعوب ، وأعلن سعد أنه لابد أن تكون أغلبية المفاوضين للإنجليز من الوفد وأن تكون له الرياسة . وأحدث ذلك خلافا حادًّا بين الوزارة والوفد وانقسم الوفد ، إذ اختلف بعض أعضائه مع سعد ، واستقالوا من الوفد وكان ذلك أول انقسام عنيف فيه . وذهب عدلى فى أول يولية إلى إنجلترا لمفاوضة كيرزون وزير الخارجية الإنجليزية مع نفر من أنصاره وأكثرهم من طبقة الترك الأرستقراطيين ، وبعد مداورات شتى للإنجليز باءت المفاوضات بالإخفاق الذريع .

وكان سعد قد أخذ يُلهب حماسة الأمة بخطبه النارية فى شهرى أكتوبر ونوفمبر مطلع أول عام للصبى فى معهده الدينى ، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية ، فلم تكد تنتظم الدراسة فيه يوما ، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتهبة ، وخاصة فى يوم عيد الجهاد يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٢١ وكأنما كانت خطبته فيه شواظا من نار صبَّه على عدلى يكن ووزارته . وظل المعهد مائجا بالثورة ، وعاد عدلى من لندن فى أوائل ديسمبر ، ونشر سعد فى الأمة نداء يستصرخها فيه على مواصلة الجهاد متخذة شعارها : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

واستشاط الإنجليز حنقًا وغضبًا ، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٣ من ديسمبر مع سبعة من أعضاء الوفد ونفوهم إلى سيلان ومنها إلى جزر سيشل فى الشمال الشرقى من مدغشقر . ولم يجد عدلى مفرًّا من استقالته . حتى لا يتحمل شيئا

من وِزر هذا النفى لزعيم الأمة وصحبه ، وقُبلت استقالته ، وبقيت البلاد دون وزارة أكثر من شهرين.

وعاد بركان الأمة الثائرة إلى الاشتعال ، وقامت المظاهرات وعنفت فى جميع المدن والبلاد وأضرب طلاب المدارس وطلاب الأزهر والمعاهد الدينية فى دمياط وغير دمياط . ولما تفاقمت المظاهرات والإضرابات تقرر إلغاء الدراسة فى الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسى الأول للفتى فى المعهد الدينى . وفى الحق أنه لم يكن عام دراسة بل كان عام ثورة وكفاح وجهاد .

وتتعاقب الأحداث ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز فى جميع المعاملات الفردية ، كما يقرر مقاطعة بنوكهم وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنواع التجارة معهم . وتصدع مصر للقرارين ، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين فيه باستقلال مصر ، ولكن مع الاحتفاظ بأربع مسائل ،هى : تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية ، والدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى ، وحماية المصالح الأجنبية فى مصر والأقليات ، والسودان . وكأن ما اعترفوا به لمصر من الاستقلال وانتهاء الحماية البريطانية محوه بهذه التحفظات .

وسرعان ما أُلِّفت وزارة فى شهر مارس برياسة عبد الخالق ثروت ، ونودى بالسلطان فؤاد ملكاً لمصر ، وعُنيت الوزارة بوضع الدستور ، وأُلِّفت فى شهر أبريل لوضعه لجنة من ثلاثين عضوا ، وأخذت تعقد لذلك اجتماعات كثيرة ، وفى شهر أكتوبر تألف حزب الأحرار الدستوريين ، وكانت كثرة أعضائه ممن انشقوا على سعد والوفد ، واختير عدلى يكن رئيسا للحزب ، وبذلك بدا جليا انقسام الأمة إلى كثرة وفدية وأقلية دستورية .

وكان الصبى منذ إغلاق معهده الدينى يعكف على قراءة الصحف ، متتبعا الأخبار السياسية وما قد تذكره الأنباء العالمية عن سعد ورفاقه ، وما يشهره أعضاء

الوفد من أسلحة فى مقاومة الإنجليز ، وما يحدث أحيانا من الاعتداء على الإنجليز والفتك بهم . وظل يتتبع مبتهجاً انتصارات تركيا بقيادة مصطفى كمال على اليونان ، وكانت قد احتلت بإيحاء من الحلفاء أزمير وشطرا كبيرا من الأناضول عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن .

وكان الشعب التركى قد تحوَّل فى الأناضول إلى عصابات مسلحة تقاوم اليونانيين ، والتحقت بها قوات نظامية ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢١ وقاد الجيش التركى مصطفى كمال أخذ يسحق جنودهم سحقا ذريعا فى معارك متوالية . وكان الصبى يفرح فرحا شديدا كلما انتصر مصطفى كمال فى موقعة ، وكان ما يزال ذاهبا آيبا إلى باعة الصحف ، ليحصل على إحداها أول دخولها دمياط ويقف على آخر أنباء تلك الحرب . وكانت المعارك فيها قد احتدمت فى صيف سنة ١٩٢٢ .

وما زال مصطفى كمال يذيق اليونانيين وبال عدوانهم الأثيم حتى استولى منهم فى شهر سبتمبر على أزمير ، وفرت فلولهم مدحورة إلى ديارهم ، وكان نصرا عظيما لتركيا وبطلها مصطفى كمال ، وهو نصر ظل المصريون يتلقون أنباءه بابتهاج ما بعده ابتهاج كان الصبى يراه مجسدا فى العناوين الكبرى على واجهات الصحف وفى تعليقات المحررين وإشادتهم بانتصارات الترك الساحقة ، لا لأن تركيا ظلت منذ تحولت إليها الخلافة مركزًا روحيًا للإسلام فحسب ، بل ربما كان أهم من ذلك فى نظر المصريين حينئذ أن انتصار الترك فى واقعه كان انتصارًا حاسمًا على قوى الاستعمار البغيض الذى ينبغى أن تُدَقَّ أعناقه فى كل مكان .

وكانت دول الاستعمار – وخاصة إنجلترا الموعزة لليونان باحتلال الأناضول – تنظر إلى هذه الانتصارات وضرباتها القاصمة لليونانيين بقلق ، لم يلبث أن تحول إلى جزع عميق ، فتلك تركيا الدولة المسلمة المهزومة فى الحرب العالمية حينئذ والتى

مزقوها فى مؤتمر الصلح إربا - وبلغ من استهانتهم بها أن منحوا اليونان أزمير وشطرًا كبيرًا من الأناضول - تعود سريعا إلى الظهور فى ميادين الحرب ببسالتها القديمة ، وتفتك بجنود اليونان فتكا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر.

٤

وكان الصبى قد عاد مع العام الدراسى الجديد إلى استئناف الدراسة فى السنة الأولى بالمعهد الدينى ، واشترى ما يلزمه من الكتب الدراسية ، ومن بينها متن الأجرومية فى النحو ، وفوجئ فى أول درس حضره عند الشيخ الذى كان يدرس له ولزملائه هذا المتن بندائه باسمه ، وكان أبوه صديقا له ، وكان قد أوصاه به . ووقف الصبى فقال له : قل ورائى : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » وهى أول عبارة فى متن الأجرومية ، ومعروف فى النحو أن الكلمة ثلاثة أنواع : اسم وفعل وحرف ، وأن الكلام هو الجمل والعبارات المفيدة المنطوقة نطقا عربيا سليما ، ولكن الشيخ لم يطلب منه أن يحاول فهم عبارة الأجرومية ، فقد عاد يقول له : قل ورائى : « الكلام مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة » و « هو » ضمير فصل على الأصح مبنى على الفتح لا محل له من الإعراب » و « اللفظ » خبر

المبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة » و « المركب » نعت لكلمة اللفظ مرفوع بالضمة الظاهرة » و « المفيد » نعت ثان لكلمة اللفظ مرفوع بالضمة الظاهرة و « بالوضع » الباء حرف جر وكلمة الوضع مجرورة بالباء وعلامة جرها الكسرة الظاهرة ». وهذا الإعراب يشتمل من أبواب النحو – التى سيعنى متن الأجرومية بعرضها والشيخ بشرحها – على أبواب المبتدأ والخبر والنعت والجار والمجرور .

ولو أن أستاذا من أساتذة التربية الحديثة وقف على هذه الطريقة فى تعليم النحو لأنكرها أشد الإنكار ، وقال إنها طريقة مخطئة كل الخطأ ، ومن شأنها أن تقيم حجابا بينها وبين التلاميذ والطلاب فلا يفهموا النحو أبدا ويظلوا طوال حياتهم يتعثرون فيه شاعرين أنه شيء معقد وأنه أكثر عقداً من ذنب الضب فكيف يتعاملون معه ؟ وكيف يستقر فى نفوسهم ؟ وكيف يتهيأ لهم أن يفهموه يوما أو يعرفوه ؟ .

وهى طريقة ترفضها التربية أو البيداجوجيا الحديثة رفضا باتا إذ لابد أن يؤخذ التلاميذ بالتعليم الابتدائى فى دروس النحو بالوقوف أولا على الكلمة هل هى اسم أو فعل أو حرف ، وتعطى للناشئة صيغ وعبارات ، ولكن لا يعربون منها شيئاً ، بل يظلون يتزودون بأناشيد وبعبارات بسيطة ، مكتفين بقراءتها فى السنتين الأوليين من التعليم الابتدائى أو فى السنوات الثلاث الأولى دون أن يطلب منهم معرفة أى باب من أبواب النحو ، فحسبهم أن تتعود آذانهم النطق السديد ، ثم بعد ذلك تعرض عليهم فى سنة تالية جمل وصيغ قصيرة تتكون من مبتدأ وخبر ، ولا بأس أن يضم إليها النعت ، ولكن ليبق الجار والمجرور والمفعولات إلى سنوات تالية .

ومن أغرب الأشياء أن هذه الطريقة التربوية السليمة لم تنجح حتى الآن فى تمثل تلاميذ المدارس للنحو ، بل إنهم يخرجون من التعليم الثانوى بعد سنوات طويلة يتزودون فيها بالنحو على الطريقة التربوية الحديثة ولا يحسنونه ، حتى ليصبح

ذلك مشكلة المشاكل وحتى لتنعقد له المؤتمرات لعلها تجد حلا للمشكلة .وتوضع بعض الحلول والمقترحات وتطبّق وتظل المشكلة قائمة ، بينما يذكر الصبى أنه حين تعلم النحو على شيخه السالف فى الأجرومية هذا التعليم الذى لا يستخدم أى وسيلة من وسائل التربية الحديثة لم يَدُرْ به العام الأول فى المعهد الدينى حتى كان قد عرف النحو العربى معرفة واضحة ، بحيث لم يضف إليها فى المستقبل إلا تفاصيل فى هذا الباب أو ذاك من أبواب النحو . أما الهيكل العام للقواعد النحوية فقد تمثله تمثلا حسنا على يد هذا الشيخ فى متن الأجرومية الصغير الذى لا يتجاوز ثلاثين صحيفة صغيرة . وكان أبوه يعرض عليه من حين إلى حين بعض أبيات من الشعر ، ويطلب إليه إعرابها ، فيعربها دون توقف أو تردد أو خطأ .

وهو شيء يعزُّ على الفهم والتفسير أن تخفق الطرق التربوية الحديثة فى تعليم النحو بحيث يستوعبه التلاميذ ويتمثلونه ، بينما تنجح طريقة الأسلاف فى تعليمه بواسطة متونه ومختصراته وهى تخلو من كل هذه الطرق ، ومع ذلك كانت تتمثله الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسرًا ولا مشقة . وكأنما عقوده المتراصة المتناسقة فى هذه المتون نقضتها أو نثرتها الطرق التربوية الحديثة ، فسقطت بعض حباتها أو ضلَّتْ مكانها أو بُدِّل موضعها ، فضاع من التلاميذ فى المدارس سياق النحو ونسقه القديم ، وأصبح من المتعذر عليهم أن يتقنوه فهما وعلما .

وكانت الحركة الوطنية لا تزال ناشطة ، فإن سعد زغلول كان لا يزال فى المنفى ، وكان الإنجليز قد نقلوه فى أغسطس إلى جبل طارق واستقالت وزارة عبد الخالق ثروت فى نوفمبر وألف الوزارة بعده محمد توفيق نسيم . وكانت وزارته رجعية ، ومن أسوأ ما صنعه حذفه لنصوص السودان من الدستور . وبذلك تنازلت مصر عن حقها فى أن يلقب ملكها بلقب ملك السودان واستقال فى فبراير

سنة ١٩٢٣ فألف الوزارة بعده يحيى إبراهيم فى منتصف مارس وصدر الدستور فى أبريل وقد حذفت منه النصوص الخاصة بالسودان ، وصدر معه قانون الانتخابات لقيام برلمان مصرى .

والبلاد فى كل ذلك تغلى واغتيالات الإنجليز تتكاثر ، ومصر والمدارس والأزهر والمعهد الدينى بدمياط ، كل ذلك يموج بالمظاهرات ويضطر الإنجليز إلى رد حرية سعد زغلول إليه فى آخر مارس ، وبالمثل رُدَّت الحرية إلى من نُفوا معه إلى جزر سيشل وإلى كثير من المعتقلين السياسيين فى مصر . وتكون لذلك رنة فرح عظيمة عند الصبى ورفاقه فى المعهد الدينى ويخرجون متظاهرين هاتفين بحياة سعد .

ويبدأ الصبى عاما جديدًا فى الدراسة وكان أهم حدث سياسى فى مطلعه عودة سعد زغلول إلى وطنه فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وكانت عودته عيدًا للشعب فى كل مدينة وفى كل بلد ، وكثرت الاحتفالات وكثرت المظاهرات الهاتفة باسمه ، وكأنما كانت مبايعات كبيرة من الشعب وأبنائه لزعامته وقيادته الباسلة للحركة الوطنية .

وكان الصبى قد انتقل فى المعهد الدينى إلى السنة الثانية ، وكان الكتاب المقرر فى النحو أكثر تفصيلا من متن الأجرومية وهو متن الأزهرية . وأخذ الشيخ يشرح الكتاب للصبى ورفاقه ، وابتدأ بإعراب : (بسم الله الرحمن الرحيم) التى يفتتح بها الكتاب ومعروف أن كلمتى الرحمن الرحيم ، صفتان أو نعتان للفظ الجلالة وأنهما مثل منعوتهما أو موصوفها مجرورتان . ولكن من حق المتكلم إذا لفظ بنعت أن يقطعه عما قبله ويستأنف ، وحينئذ إما أن يرفع النعت على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فى الآية الكريمة « هو » وإما أن ينصبه على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره « أقصد » وشرح الشيخ هذا الإعراب للنعت ، ثم قال إن النعت الأول بذلك يكون من حقك إما أن تجرَّه فتقول « الرحمن » بالجر ، وإما أن ترفعه أو تنصبه . وفى حالة الجر لهذا النعت الأول لك أو من حقك أن تتبع له النعت التالى

وهو لفظ « الرحيم » أو ترفعه أو تنصبه ، ولك مع الرفع والنصب حالتان مثلهما .

ولم تكن هناك حاجة لهذه الصورة المعقدة فى إعراب البسملة ، وكان يكفى أن يعربها الشيخ الإعراب الظاهر الذى يتمشى مع نطق الآية فى القرآن الكريم ومع نطق الخطباء وأئمة المساجد ، فتكون كلمتا « الرحمن الرحيم » مجرورتين نعتين للفظ الجلالة . ولكن من الغريب أن إعراب الشيخ للبسملة على هذا النمط المعقد بعض الشىء ثبّت فى عقل الصبى فكرة القطع والاستئناف للنعت ولم تعد تبرح ذاكرته أو تضيع منها أبداً .

ويُجْمع التربويون المعاصرون على أن هذه الطريقة لتعليم النحو عقيمة ، وهى فى الحق لم تعقم أبدا بدليل أن من كانوا يتعلمون بها كانوا يحسنون فهم النحو وقواعده ، ويتعمقون فيه تأويلا وتحليلا ، مما لا يستطيعه بحال من يتعلمون النحو بالطرق التربوية الحديثة . وقد يكون ظاهر الطريقة الأزهرية العتيقة يوحى بأنها عقيمة ، بينما هى قائمة على أسس تعليمية موروثة تخالف أسس التربية الحديثة التى توزّع أبواب النحو على سنوات التعليم . وبذلك تبعثرت قواعده ، ولم تستقم صورتها فى أذهان الناشئة فى حين أن الطريقة الأزهرية التى تعلّم الصبى على أسسها كانت تعرضه دائما عرضا كليا ، فالطلاب يلمون كل سنة بهيكله ، وهو هيكل يُعْرض فى أول سنة عرضا موجزاً فى الأجرومية . ويتسع المتن قليلا فى السنة الثانية فيدرسون متن الأزهرية ثم يتسع أكثر فى السنة الثالثة فيدرسون متن القَطْر ، وفى السنة الرابعة يدرسون متن الألفية . وبذلك تتكرر عليهم صورة النحو ، أو قل يتكرر هيكله ، ويرونه جميعه دائما دفعة واحدة غير مقَّطعة الأوصال فيستقر فى أذهان الطلاب ، ويرسخ رسوخ الصخر .

وكان بدمياط مواسم يمرح فيها الصبى غاية المرح . لعل من أهمها الأعياد ، وكانت تقام لها ألعاب فى حارة تسمى حارة العيد ، وكان الصبية يؤمونها ليتفرجوا

على مافيها من أراجيح شتى ومن فرسان خشبية معلقة بحبال متينة إلى رأس عمود يركبها الصبية وتدور بهم مبتهجين ، غير ماكان هناك من صنوف للحلوى يشتريها الصبية ، وهم يلعبون ويتصايحون .

وكان من أكبر المواسم مولد سيدى أبي المعاطى ، وهو شيخ مغربي صالح نزل دمياط منذ قرون واستقر بها . ولأهل دمياط فيه اعتقاد جعلهم يعنون بضريحه ويرفعون فوقه قبة كبيرة ، وتبعهم أبناؤهم وأحفادهم يزورونه ويعقدون له سنويا مولدًا كبيرًا فى ساحة واسعة . وعادة تكون الليلة الكبيرة لهذا المولد ليلة الخامس عشر من شهر شعبان ، ويقام له موكب ضخم يسير فيه أصحاب الطرق الصوفية ، وكل طريقة من تلك الطرق يتميز أهلها من سواهم بألوان عمائمهم وبيارقهم . ولكل طريقة « سرادق » تُصَفّ فيه كراسى ومقاعد على جوانبه ، وفى الليل يضاء بالأنوار الكهربائية ، وتقام فيه حلقة ذكر يتقابل فيها صفان من الشيوخ والشباب يتمايلان يمينا وشمالا ذاكرين الله ذكرًا كثيرًا بينما يقوم بين الصفين منشد يبث فى الذاكرين بنشيده حماسة قوية . ويقبل على شيخ الطريقة حينئذ مريدوه ، ومَنْ يريدون الانضمام إلى طريقته يأخذ العهود عليهم والمواثيق .

وتتحول ساحة هذا المولد طوال أيام انعقاده إلى سوق كبيرة ، يقيم فيها التجار دكاكين تزخر بقفف مليئة بالحمص وحَبّ العزيز والخروب والتمر . ويجاريهم أصحاب الحلوى والشراب من كل صنف . ولا ينسى الصبى أبدًا يوم الرؤية لهلال رمضان فى التاسع والعشرين من شعبان ، إذ كانت تستحيل شوارع دمياط إلى ما يشبه كرنفالاً ضخماً ، وهو كرنفال حافل كانت تسير فيه عربات نقل كبيرة مكشوفة ومزدانة بسعف النخل وبعض الأغصان والأزهار وبعض الأعلام والرايات . وتتعاقب هذه العربات وعليها صناع من كل لون يزاولون صناعاتهم من حدادة ونجارة ونحاسة وحياكة ودباغة وجزارة وصنع أحذية ونسيج لقطن

أو حرير. وباعة الفول المدمس والحَلَوى والحلاقون وكل من له صنعة بدمياط تراهم مكبين على صناعاتهم فوق تلك العربات ، فعربة الحدادة مثلاً عليها صبى ينفخ فى الكير ، والفحم متقد ، وصبى يلاحظه ، والحداد يضرب بمطرقة من فولاذ على سندان مسوياً أعمدة رفيعة محماة من حديد . وعربة النساج عليها النول وخيوط وأقمشة مختلفة ، وهو يشد السَّدَى إلى اللُّحْمة . والنجار فى يده عدده ، والنجارون أنواع ، وكل نجار قائم على صناعته ، والحلوى بالمثل أنواع وأصحابها متعددون وأمامهم صنوفها وصينياتها . وكذلك صناع الأحذية ومن يشتغلون بالحياكة . والحلاق بين يديه زبون أمامه مرآة كبيرة وقد غمر ذقنه بالصابون والموسى فى يده وهو يشحذه على شريط معلق من الجلد . كرنفال رائع لا يبرح ذاكرة الصبى لا هو ولا ماكان يُدخله على نفسه من متعة .

وأخذ الصبى منذ انتظامه فى المعهد الدينى يشغف بقراءة الصحف ، لقد كان يشغف بها فى القرية حين كان أبوه يحملها معه من دمياط فيرى فيها أخبار الحرب العالمية الأولى ويرويها للداته ، وقد أصبح الآن أشد شغفاً بها لا لما تحمل فقط من أخبار الحركة الوطنية وسعد زغلول زعيم البلاد ونفى الإنجليز له تارة إلى مالطة وتارة إلى جزر سيشل وجبل طارق وهو يزداد عتوًّا وصلابة ما بعدها صلابة ، وأيضاً لا لما تحمله من انتصارات الترك الماحقة لجنود اليونان محقا ويبلا ، بل كذلك لما كانت تحمل من فصول أدبية طويلة وخاصة صحف الوفد والأحرار الدستوريين ، إذ عُنى كل من الحزبين بأن يستكتب فى صحفه بعض الأدباء ليجذب الشباب والقراء ويستميلهم إليه .

وأتاحت هذه الفصول للصبى فى سن مبكرة أن يتصل بالحياة الأدبية فى مصر ، وكانت تملك عليه لبّه كتاباتُ العقاد فى صحيفة البلاغ الوفدية وكتابات محمد حسين هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة الدستورية . وكان طه حسين

يعنى فيها بالكتابة الأدبية الخالصة ، واختار لكتابته وفصوله الأدبية يومين : يوم الأحد لتلخيص قصة من قصص الأدب الفرنسى ، ويوم الأربعاء لكتابة موضوع يتصل بالشعر العربى . وكان الصبى يتابع مقالاته عن تطور الشعر فى العصر العباسى الأول ، وكان قد تحدث فيها عن «أبى نواس ومجونه» وذهب إلى أن عصره كان عصر مجون وزندقة ، مما جعل كثيرين يثورون ثورة عنيفة ضده ، لما تجر مقالاته من إفساد فى رأيهم لأخلاق الشباب إذ يتخذ من أبى نواس وغيره من شعراء المجون مقياسا للعصر العباسى الأول ، مُعْرِضاً عما كان فيه من الزهد والزهاد ومن العلماء والفقهاء والمحدثين والنساك .

وتتحول المعركة من أبى نواس إلى التاريخ الإسلامى جميعه وهل تضفى عليه أسدال من الجلال تحول بين عقول المعاصرين وبين النظر العلمى الصحيح فيه ؟ ويذهب طه حسين إلى أن الأحكام التاريخية أحكام إضافية وليست أحكاما مقدسة ، ومن الممكن أن يُظهر النقد العلمى خطأها .

ولا يلبث مصطفى صادق الرافعى أن يرسل إلى صحيفة السياسة رسالة عتاب كتب بها إلى ظريف من أدباء الشام ، وكان يترع فى أدبه مترعا محافظا ، وقد كتبها فى لغة مسجوعة محمَّلة بزخارف المحسنات البديعية ، وكأنما أراد أن يلقى بها فى معسكر المجددين ، ليرى مبلغ تأثيرها . وكانت قنبلة أحدثت دويا هائلا ، وتصدى لها طه حسين يحاول أن يبطل تأثيرها ، فقال إن أسلوب الرسالة ربما راق القدماء ، ولكنه لا يروقنا الآن لتغير الذوق الأدبى فى مصر تغيرا تاما ، فقد أصبح الأدباء المصريون لا يعجبون بالأسلوب المسجع المنمق ، إنما يؤمنون بالأسلوب الحر الطليق من كل قيد الذى يلائم العصر والحياة الواقعة .

وظل صادق الرافعى حاملا لواء المحافظين واقفا فى صف مقابل للكتاب الثلاثة المجددين : طه حسين والعقاد وهيكل . وذات يوم رأى الصبى للرافعى كتابه

« حديث القمر » فاقتناه ووجده فصولا فى الحب والجمال والطبيعة ، وأقبل عليه يقرؤه معجبا بجمال تصويره وبأحاديثه العاطفية فى الحب ، غير أنه كثيرا ما كان يتوقف فى القراءة لما ينتشر فى الكتاب من إبهام وغموض ، وعرف فيما بعد أن صممه المبكر هو الذى أداه إلى ذلك ، إذ جعله يتحدث إلى الناس ولا يسمعهم ، وكأنه فى كتاباته إنما يحدث نفسه ، فكثير منها إنما هو منولوج داخلى .

وكان الصبى يعجب بهيكل لأسلوبه الشفاف وكذلك بالعقاد لقوة منطقه ووضوحه . وكان طه حسين أكثرهما قربا إلى نفسه ، ربما لأنه بدأ حياته أزهريا مثله ، ولما يمتاز به أسلوبه من سهولة ويسر ونصاعة . وكان هؤلاء الأربعة كثيرا ما يتحاورون فى بعض المسائل الأدبية حوارًا طويلا فيحتل بعض حوارهم أو بعض مقالاتهم صفحة فى الصحيفة اليومية السيارة .

وكانت الصحف الوفدية ماتزال–منذ عودة سعد زغلول إلى الوطن–تحمل على وزارة يحيى إبراهيم حملات عنيفة ، بينما مضى يعدُّ العدة لانتخابات البرلمان ، ووزَّع القطر المصرى إلى ٢١٤ دائرة لمجلس النواب وإلى ٧١ دائرة لمجلس الشيوخ وأعضائه المنتخبين . واهتم الشعب بالانتخاب وتألفت له لجان شعبية فى المدن والقرى . وتمت انتخابات النواب فى يناير سنة ١٩٢٤ وفاز الوفد بمائة وخمسة وتسعين مقعدا ، وكان فوزًا جارفا إذ لم يفز من الأحرار الدستوريين سوى ستة ؛ وكذلك لم يفز من الحزب الوطنى سوى ثلاثة . وسقط فى الانتخابات أكثر خصوم سعد ، وسقط رئيس الوزارة يحيى إبراهيم فى دائرة منيا القمح أمام مرشح الوفد . وكان أبو الصبى وفديا ، وكانت لذلك فرحة كبيرة عند الصبى وأبيه وعند الشعب جميعه .

وكان طبيعيا أن يتولى سعد زغلول الوزارة كما يحتم ذلك الحكم الديمقراطى نزولا على إرادة الأمة ، وفعلا استقال يحيى إبراهيم عقب ظهور نتائج

الانتخابات ، وألف الوزارة سعد زغلول ، وأجريت الانتخابات لمجلس الشيوخ فى أواخر فبراير ، وفيها علت كفة المرشحين الوفديين علوًا كبيرًا ، وفى ١٥ من مارس افتتح أول برلمان مصرى .

وكان مصطفى كمال قد عمل على تحويل تركيا إلى دولة حديثة ، وصدعت لرغبته الجمعية الوطنية الكبرى فأعلنت قيام الجمهورية التركية وانتخبته رئيساً لها ، وتحول بعاصمة البلاد من إستانبول إلى أنقرة .

وفى الثالث من شهر مارس قبيل افتتاح البرلمان المصرى اتخذت الجمعية الوطنية التركية قرارا بإلغاء الخلافة استجابة لرغبة مصطفى كمال فى أن يسير بتركيا فى طريق الحضارة الغربية وأن يصبغ الدولة بصبغة مدنية خالصة . وأحدث ذلك استياء فى العالم الإسلامى كان له أصداؤه فى الصحف المصرية ، فكثر الحديث عن الخلافة وعواقب إلغائها ، ودعا كثيرون إلى العمل على قيامها ، ولم يتراء فى الأفق أى أمل فى نجاح هذه الدعوة ، إذ كانت البلاد الإسلامية ترزح جميعا تحت نير الاستعمار الأوربى البغيض .

وكان الصبى قد انتقل فى المعهد الدينى إلى السنة الثالثة وبدأ عاما دراسيا جديدًا . وكان كلما صوّب سؤالا إلى أحد شيوخه بدأ إجاباته بقوله له : يا فتى ، وكان قريبا إلى نفوس الشيوخ جميعا وعرض عليه شيخ النحو والصرف أن يقرأ معه الدرس ليلا قبل أن يلقيه عليه وعلى رفاقه صباحا لضعف كان فى بصره ، فكان يقرأ مع شيخه الدرس فى المساء فى نحو ساعة أو تزيد قليلا . وكان يطلب إليه أحيانا أن يقرأ ما يقوله الشارح فى بعض المواضع تعليقاً على متن الكتاب وكان كتابَ القطر واسمه الكامل « قَطْر الندَى وبَلُّ الصَّدا » وقطر الندا : حياة الزهر فى الصباح ، والصدا : العطش .

وفكر الفتى حينئذ فى أن يكتب ملخصا لمتن القطر الذى كان يقرؤه مع شيخه

جامعا بينه وبين شرحه ، ولم يكد العام الدراسى يوشك على الانتهاء حتى كان قد أتم تأليف هذا الملخص ، وبذلك كان أول كتاب ألفه الفتى فى النحو . وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى ما سينشط له الفتى - فيما بعد - من التأليف والتصنيف .

وتصادف أن رأى فى هذا العام الدراسى يوماً لابن هشام مؤلف كتاب القطر كتاباً فى بعض المكتبات ، يتناول النحو ومسائله فى جزءين يسمى «كتاب مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» فاقتناه وأعجب بطريقة ابن هشام فى صَوْغه وتأليفه ، إذ يعرض فى نحو جزء منه الأدوات الكثيرة فى العربية من الحروف والأسماء ويبين وظائفها المتعددة ، فمثلاً «ما» يذكر ابن هشام فى درسه لها أنها تأتى اسماً ، وحينئذ قد تكون موصوفة أو موصولة أو تعجبيه أو استفهامية أو شرطية ، وتأتى حرفاً وحينئذ قد تكون نافية أو مصدرية أو زائدة .

وهكذا ما يزال ابن هشام يصور فى الجزء الأول أو المجلد الأول من كتابه «المغنى» الوظائف المختلفة للأدوات الاسمية والحرفية فى اللغة . وفى الجزء أو المجلد الثانى يبسط القول فى الجملة وأقسامها وأحكامها وتطبيقاتها . وهو عرض للنحو بطريقة جديدة غير مألوفة فى كتبه ، وربما كان هذا الكتاب هو الذى ألقى فى وعى الفتى مبكراً حاجة كتاب النحو الخاص بالناشئة إلى التيسير والتبسيط مما جعله فيما بعد ينشط للوفاء بهذه الحاجة .

ولم يكن الفتى فى هذا العام الدراسى يعكف على كتب النحو وحدها ، بل كان يعكف أيضاً على كتب الفقه الشافعى ومتونه وشروحه وشروح الشروح المسماة بالحواشى ، وبالمثل كان يصنع رفاقه . وكان أكثرهم محاورة وأسئلة لشيخه ، وكان يعجب رفاقه منه ذلك ، وكانت تجرى على ألسنتهم أسماء أئمة الفقه الشافعى السابقين ممن يتردد ذكرهم فى الشروح والحواشى مثل النووى والرافعى والرملى والعز ابن عبد السلام . وتصادف أن كان والد الفتى يسمى عبد السلام ، فأطلق رفاقه

عليه اسم هذا الإمام ، فكانوا ينادونه إما باسم العز وإما باسم ابن عبد السلام .

ولم يكن الفتى قد عرف موقف هذا الإمام المعروف من الظاهر بيبرس الذى مزق جموع التتار فى عين جالوت بفلسطين شر ممزق ، وكسب لنفسه ولمصر مجداً حربيا رائعاً ، فإنه أراد أن يأخذ لنفسه بعد هذا النصر المبين البيعة بالسلطنة على مصر ، وبينما كان يبايعه الأمراء والقضاة وعلماء الدين تصدّى له العز بن عبد السلام قائلاً فى وجهه : إن بيعتك لا تصح ، لأنك لست حرا ، والحرية أساس فى الولاية على الناس ، وأنت مملوك للبندقدار . وحينئذ استحضر بيبرس شهوداً ، شهدوا له أن البندقدار أعتقه وحرّره. فبايعه العزّ. وظل معاصروه والأجيال التالية يعجبون به لهذا الموقف العظيم وأنه لم يكن يخشى فى إعلان الحق أحداً مهما تكن قوته وسلطانه .

وكانت بمصر فى العقد الثالث من القرن الحاضر محاكم تسمى محاكم الخط ، كانت تؤلف من بعض الشيوخ فى القرى أو بعض ذوى الوجاهة فيها للفصل فى الخصومات الصغرى بين القرويين ، لأنهم أكثر دراية بشئونهم وبما ينشأ أحياناً بينهم من خصومات على الريّ وغيره مما يتصل بحياتهم . وكان أبوه عضواً فى محكمة خط دمياط ، فكان يذهب أحياناً للفرجة على هذه المحكمة ، وهى تحقق فى القضايا وتناقش الشهود ، مبتغية الوصول إلى الأحكام العادلة المنصفة . وربما كان لذلك بعض التأثير فى الفتى فيما بعد ، إذ أحب الإنصاف فى أحكامه على الأدباء وآثره دون تحيُّف لهم أو تنقص .

وكانت مصر حينئذ تعقد الآمال على زعيمها سعد زغلول أن يحقق لها – وهو رئيس وزارتها – أمانيها القومية ويسترد لها من الإنجليز الباغين حريتها كاملة وحقوقها السياسية فى السودان ، وتصادف أن كانت تتولى الحكم فى إنجلترا وزارة لحزب العمال هناك برياسة ماكدونالد ، وكان قد أبرق إلى سعد يهنئه بافتتاح البرلمان

ويبدى استعداده واستعداد حكومته للمفاوضة معه . وبينما سعد يتأهب للذهاب إلى إنجلترا ، لعله يحقق لبلاده ما تتمنى ، إذا شاب يطلق عليه الرصاص فى ١٢ من يولية . فأصابه فى ساعده الأيمن إصابة خفيفة ، وتبين أن به مَسًّا من جنون ، فأُدخل فى مستشفى الأمراض العقلية .

ومضى سعد يستعد للسفر إلى لندن ، ومصر جميعها حانية عليه عاطفة ، آملة أن يحقق لها جميع مطالبها ، فترفع إنجلترا يدها عن حماية قناة السويس وعن السودان ، ويتم لها استقلالها . ودارت هذه المعانى فى صدر شاعر مصر شوقى ، كما كانت تدور فى نفس سعد ، فيحييه قبيل إبحاره من الإسكندرية بقصيدة رائعة نشرها بصحيفة الأهرام فى ٢٤ من يولية سنة ١٩٢٤ وفيها يهتف :

ويا سعدُ أنت أمينُ البلادِ   قد امتلأتْ منك أيمانُها
ولن ترتضى أن تُقدَّ القناة   ويُبتَرَ من مصرَ سودانُها
فمصرُ الرياضُ وسودانُها   عيونُ الرياضِ وخُلجانُها
وما هو ماءٌ ولكنه   وَرِيدُ الحياةِ وشِرْيانُها
تتمِّمُ مصرَ ينابيعُه   كما تمَّمَ العينَ إنسانُها

وكانت هذه أول مرة يقرأ الفتى لشوقى قصيدة وطنية ، وأخذ يردد أبياتها وينشدها وخاصة الأبيات الثلاثة الأخيرة ، فقد ظلت لا تبرح ذاكرته أبداً ، وظل إعجابه بشوقى وشعره يزداد مع الأيام .

وكان سعد قد اتجه إلى باريس ، وظل بها حتى بارحها إلى لندن فى ٢٣ من سبتمبر لمفاوضة ماكدونالد ، وبدأت المفاوضة بعد يومين وفيها قدَّم سعد مطالب مصر الكفيلة بتحقيق استقلالها التام ، وأهمها جلاء جميع القوات البريطانية عن الأراضى المصرية وزوال كل سيطرة لبريطانيا عن مصر وعن جيشها فى السودان ، بحيث يخرج منه قائده الإنجليزى ومن معه من الضباط الإنجليز ، مع اعتراف

بريطانيا بتنازلها عن دعوى حمايتها لقناة السويس وللأجانب والأقليات فى مصر ومع سحبها للمستشارين : المالى والقضائى . ولم تلبث المفاوضة مع ماكدونالد أن تعثرت ، إذ عمد إلى المناورة مع سعد .

ولما تبين لسعد بشكل قاطع سوء نيته هو ووزارته قطع المفاوضة معه وعاد إلى مصر فى ٢٠ من أكتوبر مرفوع الرأس موفور الكرامة لمواقفه القوية فى المفاوضة وإبائه التنازل عن أى حق من حقوق بلده . ولم يكد يمضى شهر على عودته حتى وقع حادث مروع ، إذ اغتيل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام ، وانتهزت إنجلترا الفرصة فقدَّمتْ إلى سعد بعد يومين إنذاراً عنيفاً ، تطلب فيه اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية وأن تتعقب الجناة وتعاقبهم أشد العقاب وأن تدفع للحكومة البريطانية غرامة مقدارها نصف مليون من الجنيهات . وأسوأ من هذا كله أن تسحب الجيش المصرى من السودان .

وارتضى سعد دفع التعويض المالى غير أنه أنكر أشد الإنكار ما طلبه الإنجليز من خروج الجيش المصرى من السودان وتركه للإنجليز ليجعلوا منه مستعمرة إنجليزية وسط القارة الأفريقية . وكتب المندوب السامى إلى سعد أنه أرسل إلى حكومة السودان بتعليمات تقضى بإخراج الجيش المصرى من السودان ، وأنه أمر باحتلال قوة عسكرية بريطانية لجمارك الإسكندرية ، حينئذ أصر سعد على استقالته فى ٢٤ من نوفمبر .

وحدث أن سكن بجوار منزل الفتى تاجر لبنانى يتجر فيما يجلبه من بلده لبنان إلى دمياط من التين والجوز واللوز والفستق والبندق ، وكان هذا التاجر دمث الخلق رقيق الحاشية ، وتعرف أبو الفتى إليه ، كما تعرفت زوجته بوالدته ، وتزاورت الأسرتان وانعقدت بينهما مودة ، وذات يوم دخل الفتى دكان هذا التاجر ، فرحب به ، ووجد الفتى عنده بعض مجلات وكتب أدبية لبنانية ، فاسترعت نظره وأخذ

يقلّب فيها ، ووجد فيها أشعاراً لبعض اللبنانيين ولبعض الشعراء المهاجرين إلى أمريكا ، كما وجد بعض مقالات أدبية ، فأخذ يقرأ هنا وهناك ، ولاحظ ذلك التاجر ، وكانت فيه نزعة أدبية ، فسأله هل تحب أن تأخذ معك بعض المجلات أو الكتب لتقرأها ، ثم تردها ، وتمنّع الفتى ، وقال له التاجر إن هذه المجلات والكتب تأتيني دائماً ، ولا بأس أن تتردد عليّ تقرؤها .

وأصبح من عادة الفتى المحببة إلى نفسه أن يمر على دكان هذا التاجر من حين إلى آخر ويقرأ عنده ما يأتيه من مجلات أوكتب أدبية . وكانت هذه القراءات نافذة جديدة للفتى ، كى يقرأ أشعاراً من طراز جديد لا يألفه ، طراز ليس فيه مديح ولا هجاء وإنما فيه شغف بالطبيعة ، وفيه مشاعر وجدانية ونزعات إنسانية وتبرم بما فى الدنيا من شرور وآلام .

وكان من أهم ما لفت الفتى فى أشعار هذا الطراز كثرة ما يجرى فيها من الصور والاستعارات والأخيلة ، حتى لكأنما غاية الشاعر أن يأتى بطرائفها المبتكرة . ولم يكن الفتى قد عرف أن أصحابها يتأثرون بالنزعة الرومانسية الغربية وأنهم لذلك مولعون بالتشبيهات والاستعارات وبتصوير العواطف الحارة إزاء جمال الطبيعة ومفاتنها وإزاء الإنسانية وآلامها وأوصابها . وقد غرست هذه الأشعار فى نفس الفتى محبة التصوير فى الأدب وما يحمل من خيالات وأطياف مبتكرة .

وفى ذات اليوم الذى قدم فيه سعد زغلول استقالته واستقالة وزارته يوم ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ ألف القصر وزارة رجعية برياسة أحمد زيور ، فسلم للإنجليز بكل ما تضمنته إنذاراتهم لسعد وكل ما طلبوه منه ، ولم يسلم فقط بجلاء الجيش المصرى عن السودان ، بل سلم أيضاً بجلاء الموظفين المصريين المدنيين عن القطر الشقيق ، وبذلك وقّع جلاء مصر عسكرياً ومدنيا عن السودان ، وأطلق أيدى المستشارين البريطانيين : المالى والقضائى ، واتسع بسلطة مدير القسم الأوربى فى

الأمن العام ، وكأنه لم يعد رئيس وزارة مصرية بل أصبح موظفاً فى وزارة الخارجية البريطانية فهو يأتمر بأمر المندوب السامى وينفذ كل مطالبه . ويدأ فأجّل البرلمان شهراً ، وبعد شهر ثان استصدر مرسوماً بحله .

ولم يلبث زيور أن أسس للقصر حزباً سماه «حزب الاتحاد» وصحيفة باسمه تنطق بلسانه ، وكأنما ظن أنه من الممكن أن يسود مصر حكم مطلق ، تُهْدَرُ فيه حقوق الأمة ، ويكون الأمر كله للحاكم يوجهها كما يشاء ويهوى . وخاب ظنه إذ أجرى فى يوم ١٢ من مارس سنة ١٩٢٥ الانتخابات لمجلس نواب جديد ، ففاز الوفد بأغلبية عظيمة وعلى الرغم من ذلك ألف القصر وزارة جديدة اشترك فيها مع حزب الاتحاد حزب الأحرار الدستوريين ، وكان عدلى يكن قد استقال من رياسة هذا الحزب وخلفه عليها عبد العزيز فهمى فاشترك فى الوزارة مع ثلاثة من أعضاء حزبه .

ولم يلبث زيور أن حل مجلس النواب الجديد يوم انعقاده فى ٢٣ من مارس وبذلك تعطل الدستور قبل أن يجفَّ مداده ، وأصبحت الأمة تحكم حكماً استبداديا يقوم عليه حزبان لا يمثلان إلا أقلية محدودة فى البلاد ، وحتى حزب الأحرار الدستوريين الذى طالما ناضل كثير من أعضائه ضد الإنجليز الغاشمين واشترك غير عضو منهم فى وضع الدستور انقلبوا يضحّون به على مذبح المناصب الوزارية .

واستفحل حينئذ نفوذ القصر ، وانعكست الآية ، فأصبح هو – لا الأمة – مصدر السلطات . وكان من آثار ذلك أن كثر الملق للقصر وصاحب القصر ، وكان أكبر ما أحاط به حزب الاتحاد فؤادا من ملق ما أخذ يوسوس به شياطينه إليه فى أنه حرى به أن يطمح إلى الخلافة الإسلامية وأن يصبح خليفة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . وكان بعض المصريين قد أخذ يدعو إلى انعقاد مؤتمر إسلامى

عام للنظر فى إعادة الخلافة وفى أولى الحكام المسلمين بتقلدها ، فظن فؤاد ظنا واهماً أنه من الممكن أن تكون الخلافة من نصيبه .

وامتعض الشيخ على عبد الرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة لهذا الزيف الذى توشك مصر أن تتورط فيه ، فنشر كتاباً ثائراً بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» ذكر فيه أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الخلافة ليست من أصول الإسلام وأن المسلمين اليوم لا يحتاجون إليها لا فى أمور الدين ولا فى أمور الدنيا . وأثير غبار كثيف من الجدل حول هذا الكتاب وصُنِّفت كتب مختلفة للرد عليه . وعُدَّ قنبلة موجهة لصاحب القصر ، الغرض منها استئصال أمانيه فى الخلافة من جذورها ، بل نَسْفُها نسفاً ، وحرَّك القصر بعض الأزهريين ضد الشيخ وكُتبت فيه مقالات وقُدِّمتْ للقصر عرائض . وفى ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥ عُقدت هيئة كبار العلماء برياسة شيخ الأزهر لمحاكمته ، وانتهت إلى الحكم بإخراجه من زمرة العلماء .

وانتقل الفتى إلى السنة الدراسية الأخيرة بمعهده الدينى سنة ١٩٢٥/١٩٢٦ ولم يكن للمعهد مبنى خاص ولا مقاعد مهيئة للطلاب ، بل كانت الدراسة ، فى أكبر جامع بدمياط ، وهو جامع البحر ، وكان مفروشاً بالحُصُر ، وفيه مقاعد منشورة مرتفعة خاصة بالشيوخ المدرسين ، وكان الطلاب يتحلقون حولهم قعوداً على الحُصُر فيما يشبه نصف دائرة ، والشيخ يكون فى يده عادة ملزمة من الكتاب المقرر أو من أحد شروحه وفى أيدى الطلاب ملازم مماثلة ، والشيخ يقرأ أو يشرح والطلاب يسألون ويلحون فى الأسئلة ، وهو يجيب . ولم يكن الطلاب الممتازون يسألون فحسب ، بل كانوا يعترضون على ما يقوله الشيخ ، ويحاولون بكل ما استطاعوا أن يُخرجوه أو يلزموه بما يقولون .

وكان الفتى على شاكلة هؤلاء الطلاب يستعين فى ذلك - كما كانوا يستعينون -

معى

بقراءة شروح الشروح أو الحواشي . وكثيراً ماكان يعترض شارح الشرح على مؤلف الشرح ، وقد يعترض أحدهما على صاحب المتن . ومن خلال ذلك كان الصبى ورفاقه يحاورون شيوخهم محاورات شتى ، وكانوا أحياناً لا يكتفون فى هذه المحاورات بقراءة شروح الشروح أو الحواشى ، بل يضيفون إليها ماكتبه بعض المؤلفين عليها من ملاحظات ووجوه نقد ومراجعات كانت تتضمنها تقارير مطبوعة على هوامش الحواشى للتنبيه على خطأ أو تصحيح هنا أو هناك .

ولا شك فى أن هذه الصورة للكتب الأزهرية كما عرفها الفتى فى العقد الثالث من القرن الحاضر فى صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير كانت مَشْحذة كبرى لعقول الطلاب الأزهريين ، فالكلمة فى المتن مختصرة أشد اختصار ، وتُشْرَحُ وتُناقَشُ ، والفكرة فى الشرح تُشْرَحُ بدورها وتناقش مناقشة واسعة فى الحاشية ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً الفكرة فى الحاشية يناقشها مؤلف التقرير فى أضواء غامرة .

وكثيراً ما سمع الفتى – فيما بعد – نقداً لهذه الطريقة ، وكان دائماً يعارضه لأنه لا يصور الحقيقة ، ولأنه يتجنى على الأسلاف فيما صنعوا من هذه الصورة الجدلية فى مختلف العلوم والفنون وخاصة فى الفقه وعلم الأصول وفى النحو والبلاغة . ولا ريب فى أن من ينقدون هذا النهج لم يعايشوه ولم يعرفوا مدى صَقْله للعقول وبنائها بناء منطقيا سديداً ، ولو أنهم عايشوه لعرفوا أنه أفاد العقل العربى فى مصر وغير مصر خصوبة وغنى لا حد لهما ، فكل فكرة ، بل كل لفظة ، تمحَّص وتحلل وتختبر حتى يمكن أن توضع الوضع السليم ، وأى اختبار ؟ لقد تحولت المتون والشروح والحواشى والتقارير إلى مختبرات كبيرة لعقول أنبه العلماء فى كل فرع من فروع العلوم الدينية واللغوية .

ولم يكن أى متن من المتون فى أى علم من العلوم مجرد تلخيص لعلم بعينه

تلخيصاً موجزاً ، بل كان مع هذا التلخيص الشديد يحمل مختلف الآراء فى المسائل العلمية دون ذكر أصحابها ، وكان يومئ مؤلفه إليها إيماء ، أو يضع عبارات من شأنها أن تومئ إليها ، وهو لذلك لا يكتب مَتْنَهُ إلا بعد أن يقرأ أمهات الكتب فى العلم الخاص به ، ثم يأتى بعده الشارح وصاحب الحاشية وصاحب التقرير ، فيقرءون الأمهات وكثيراً من كتب هذا العلم ، ويعرضون عليها المتن أو قل يعرضونه على كل ما سبقهم من عقول خصبة فيه ، ثم يعرضونه على عقولهم محاولين النفوذ إلى بعض الآراء السديدة .

وبذلك تصبح دراسة المتن البسيط لهذا الفتى وأنداده أشبه بدائرة معارف صغرى فى هذا العلم أو ذاك . وكان الطلبة عادة – مثل الفتى – يُعِدُّون دروسهم فى الجامع ليلاً ، فالأنوار فيه ساطعة متقدة إلى نحو الساعة الثانية عشرة ، وتعود إلى الاتقاد والسطوع مع الصباح ، وكان الفتى يؤثر إعداد دروسه فى المساء .

وكان يجد متعة لا تقدر فى مراجعة الشروح والحواشى والتقارير ، كى يورد على الشيوخ فى الصباح ما يعنّ له من اعتراضات . وكأن الدراسة فى هذا المعهد – كما كانت فى الأزهر الشريف – لم تكن لجمع المعارف فحسب ، كما هو الشأن فى المدارس المدنية ، بل كانت أيضاً لنشوب معارك جدلية كبيرة ، وهى معارك كانت تعتمد على ما أثاره الأسلاف فى شروحهم وحواشيهم وتقاريرهم ، وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات بعضها صَلْد كقطع الصخر ، وبعضها هَشٌّ كقطع الزجاج . ومهما صَوَّر الفتى – بعد ما تقدمت به السن – من خصب هذه المعارك فلن يبلغ كل ما يريد من بيان أهميتها وقيمتها فى بناء العقل وشَحْذِهِ وإحكام تحليلاته واستنباطاته .

ولا ريب فى أن هذه المعارك الجدلية المستمرة كانت تتيح – إلى أبعد حد – للأزهريين من جيل الفتى والأجيال قبله وبعده قدرة فى تبين احتمالات النصوص ،

وما يمكن أن يؤديه منطوق النص ومفهومه وما يمكن أن يؤوَّل ويفسَّر به . وقد ألقى ذلك فى وَعْى الفتى أن لا يَسْكُنَ لتقبل المعارف فى يسر ، بل دائماً يحاور ويجادل فيما يُلْقَى إليه وفيما يسمعه ، لا طلباً للجدل والحوار فى أنفسهما ، وإنما طلباً لتبين الحقائق العلمية تبيناً دقيقاً ، مهما احتمل فى سبيل ذلك من العناء والمشقة الشديدة فى قراءة التقارير والحواشى والشروح ، ومهما بعدت به الطريق ، ومهما كثرت العقبات فيها والصعاب . وإن الفتى حين يذكر ذلك بعد أن علت به السن ليتمنى أن تظل هذه الطريقة التعليمية قائمة فى الأزهر ومعاهده الدينية ، حتى تستمر لطلابه قوة الجدال ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار .

ومن الغريب أن الجامعات فى مصر حين أُسِّسَتْ لم تفد الفائدة التى كانت مرجوَّة من صورة هذه الطريقة التربوية فى الأزهر ومعاهده الدينية . وليس من المعقول أن تدخل صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير فى الدراسات الجامعية فليس ذلك هو جوهر الطريقة ، إنما جوهرها النفوذ إلى المحاورة والمجادلة وعرض مختلف الآراء فى المسألة أو الفكرة الواحدة .

وكان من الممكن – على هذا المدى – أن ينشأ على الأقل فى كليات الآداب والحقوق علم يسمى علم احتمالات النصوص ، تُدَرَّس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية . وكان من الممكن أن يتوسَّع فى ذلك ، فتدرس احتمالات النصوص فى الاقتصاد والسياسة .

وكانت الصحف قد ظلت مشغولة فترة طويلة بقضية الشيخ على عبد الرازق مبدئة ومعيدة فى الحديث عن حرية الفكر وحق كل مواطن فى التعبير عن رأيه أو آرائه . وكانت أسرة الشيخ من الأسر الأساسية فى حزب الأحرار الدستوريين ، وطُلب إلى عبد العزيز فهمى رئيس الحزب ووزير العدل آنذاك أن يَفْصل الشيخ من وظيفته فى القضاء الشرعى ، فرأى إحالة الأمر إلى لجنة قضايا الحكومة لإبداء

الرأى القاطع فيه وهل يؤدى قرار هيئة كبار العلماء فى الأزهر بإخراج الشيخ من زمرة العلماء إلى فصله من القضاء الشرعى حتماً أو لا يؤدى إلى ذلك ؟.

ورأى القصر وحواشيه أن هذا الإجراء معارضة صريحة لهواه ومشيئته ، فأُقيل عبد العزيز فهمى من منصبه الوزارى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ وأثار ذلك ضجة كبيرة فى الصحف وخاصة صحيفة السياسة لسان الأحرار الدستوريين ، إذ أُقيل رئيسهم من منصبه الوزارى دون رعاية أو نظر إلى أنه رئيس أحد الحزبين اللذين تتألف منهما الوزارة . واستقال وزيران دستوريان من الوزارة تضامنا مع رئيس حزبهما ، واحتجاجا على موقف القصر منه . ومُلئت مناصبهم جميعا بوزراء من حزب الاتحاد ، فأصبح هو وحده الذى يدير دفة الأمور بمصر.

وخُيِّل إلى القصر وحواشيه أنهم سيكسبون الرأى العام فى الشعب إلى جانبهم ، بما حاولوا من إثارة مشاعره الدينية ضد الشيخ على عبد الرازق وكتابه ، وخاب فألهم فإن الشعب أثبت أنه أكثر حصافة وأكبر من أن يتأثر بدعاية دينية مغرضة ، فلم يأبه لها ولا التفت ، ومضى يعارض - بكل ما استطاع - وزارة زيور التى انتهكت - دون أى حياء - حرماته الدستورية والسياسية ، وما تزال تتمادى فى انتهاكها دون زاجر أو رادع .

وكانت صحف الوفد تحمل حملات شعواء على زيور ووزارته منذ تأليفه لها ، وانضمت إليها بمجرد خروج الدستوريين من الوزارة صحيفة السياسة الناطقة بلسانهم . وأخذوا يسعون للتعاون مع سعد زغلول فى معارضته للوزارة ، ومَدَّ إليهم يده ، وكان زيور لا يزال يسوِّف فى إجراء الانتخابات بعد حلِّه غير الدستورى للبرلمان ، فوجه سعد دعوة إلى أعضائه - وعدَّه لا يزال قائما - للاجتماع بمبناه فى نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

ومضى الأعضاء إلى البرلمان يريدون دخوله ، فلم يستطيعوا حتى الاقتراب منه

معى

إذ وجدوا أنه استحال هو والشوارع المحيطة به إلى ما يشبه ثُكنة حربية لا يمكن اقتحامها . حينئذ اتجهوا جميعا إلى فندق الكونتيننتال وعقدوا به اجتماعهم ، وانتخبوا سعد زغلول رئيسا ، ووسط حماسة دافقة قرروا : عدم الثقة بالوزارة وأن اجتماعهم قانونى ، وأنهم سيوالون اجتماعهم من حين إلى آخر فى المواعيد والأمكنة التى يتفقون عليها .

ودخل شهر ديسمبر فزادت الوزارة الطين بلة بعقدها اتفاقية خاسرة مع إيطاليا بإملاء من الإنجليز تنازلت لها بمقتضاها عن واحة جغبوب كى تضمّها إلى مستعمرتها حينئذ : ليبيا . وأنكر الشعب والصحف الاتفاقية إنكارا شديدا ولم يلبث أن سقط ركن عتيد من أركان القصر باستقالة رئيس الديوان فيه . وبدت فى الأفق بارقة أمل فى أن تتنفس مصر الصعداء من زيور والقصر وحكمهما الجائر الفاسد .

وفى شهر يناير انعقد ائتلاف وثيق بين أحزاب مصر الثلاثة : الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، وأجمعوا أمرهم على العنف بزيور ووزارته ، حتى يضطر راغما إلى عودة الحياة النيابية السليمة . وعقد فى فبراير اجتماع برياسة سعد ، كان امتدادًا لاجتماع نوفمبر وفيه خطب سعد زغلول خطبة نارية ملتهبة ، وقرر المجتمعون نفس قرارات نوفمبر الماضية . وأخيرًا أجريت الانتخابات فى مايو سنة ١٩٢٦ وكان عبد العزيز فهمى قد استقال من رياسة حزب الأحرار ، وفاز الوفد بأغلبية ساحقة ، وسقط حزب الاتحاد فى الانتخابات سقوطا مزريا ولم تقم له بعد ذلك قائمة .

وبعد هذه الانتخابات بثلاثة أيام صدر الحكم فى أكبر قضية سياسية تتصل باغتيالات الإنجليز فى السنوات الماضية حينئذ وكانت قد لُفِّقَتْ تهمة خطيرة للوفديين الكبيرين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى بأنهما يشتركان فى جمعية سرية لاغتيال البريطانيين وقُدِّما للمحاكمة مع نفر لُفقت عليهم نفس التهمة ،

وحُكم ببراءتها ، وبالتالى براءة حزب الوفد من الاشتراك فى حوادث الاغتيال السياسى .

وكانت هذه المحاكمة قد استمرت طويلا ، وترافع فيها صفوة من المحامين الوفديين من أمثال مصطفى النحاس ونجيب الغرابلى ومكرم عبيد ومحمد يوسف ومرقص حنا . وكانت الصحف تنشر مرافعاتهم ، وكانت المرافعة الواحدة تملأ أحيانا صفحة أو صفحتين على ما يذكر الفتى ، وكان يقرؤها مع بعض رفاقه ويجد فيها متعة كبيرة ، إذ كانت تكتب بلغة بليغة .

وكانت المقالات فى الصحف اليومية على حظ غير قليل من البلاغة ، إذ كان يكتبها أنبه الأدباء حينئذ مثل هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة والعقاد وعبد القادر حمزة فى صحيفة البلاغ الوفدية . ومن حين إلى حين كانت تنشر الصحف خطبة بارعة لأحد السياسيين الكبار .

وامتاز سعد زغلول خاصة فى هذا المجال ببيانه الساحر الذى كان يستولى به على قلوب الشعب ، وكان الشبان كثيرًا ما يحفظون شظايا من خطبه يرددونها ، كقوله فى بعض الأحداث وقد ثار الشعب ضد بريطانيا وقال مندوبهم إن سعدا هو الذى يثير تلك القلاقل : « تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه » وقوله السالف واضعا للشعب شعاره فى مطالبته بتحريره بلاده من نير الإنجليز : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » وقوله: « يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن يقوم الحب بين الناس مقام القانون » .

فى هذا الجو من خطابة سعد وأمثاله ومن كتابات الأدباء ومرافعات المحامين المفوّهين فى القضايا السياسية ، وماكان أكثرها حينئذ ، كان يتنفس الفتى هو وجيله فى العشرينيات ، وهو ما لم يتح للأجيال التالية فى مصر ، مماكان له آثاره العميقة فى نفس الفتى ونفوس جيله إذا أحسوا بقوة التعبير البيانى وحاولوا أن

يصدروا عنه فى كتاباتهم ، وبحق أصبح نفر منهم – فيما بعد – من كتاب مصر المعاصرين وأدبائها النابهين .

ومضى الفتى فى هذا العام الدراسى – وكان آخر أعوامه فى المعهد الدينى بدمياط – يعكف على الدراسة وعلى حفظ المتون وخاصة متن الألفية لابن مالك ، وهو ألف بيت تلخّص قواعد النحو والصرف . وكان العام عام الشهادة الابتدائية ، وكانت امتحانا عاما ، فالأسئلة تأتى من الأزهر ، وإجابات الطلاب لا تصحّح فى المعهد الدينى ، بل ترسل إلى اللجان المنعقدة فى الأزهر لتصحيحها .

وطبيعى لذلك ألاّ يكون ترتيب الطلاب فى هذا العام داخل فرقهم بالمعهد كالعادة بل يكون بينهم وبين طلاب الأزهر ومعاهده الدينية . وكان كل معهد يحرص على أن يكون أوائل الشهادة من حظه . وكان الفتى أول فرقته فكان أساتذته ما يزالون يشجعونه ويحثونه على الجد فى الدراسة . وكانوا – كعادتهم – يفسحون له ولرفاقه فى صدورهم فليس بينهم من يغضب ، لأن الطالب يعترض على بعض أقواله أو بعض شروحه ، بل قد يعلن نزوله عند رأى الطالب إحقاقا للحق العلمى .

وإن الفتى ليذكر امتحانه الشفوى حينئذ وحضور شيخ المعهد – أو رئيسه – هذا الامتحان واشتراكه مع اللجنة فى الأسئلة الموجهة إليه ، وقد سأله إذا جاء فعل المضارع جوابا لفعل الأمر فى مثل « ذاكر تنجح » ما الحكم الإعرابى للمضارع ، فقال الفتى له : يجوز جزمه فى جواب الأمر بالسكون ويجوز رفعه . وأنكر الشيخ الجليل إجابة الفتى وقال إن المضارع فى جواب الأمر يُجزم ولا يصح رفعه . فاضطر الفتى أن يستشهد لكلامه ببيت من الألفية لابن مالك ضمنه القاعدة بالصورة التى ذكرها وأنه يجوز فى المضارع حينئذ الجزم والرفع ، فقال الشيخ على جلالته للفتى مبتسما : من حفظ حُجّةٌ على من يحفظ ، وسلّم له برأيه ، ونجح الفتى النجاح

المأمول فى الشهادة الابتدائية الأزهرية .

وفى يونية من صيف هذا العام استقالت وزارة زيور ورأى سعد أن يتخلى عن الوزارة ويؤلفها مستقل ، هو عدلى يكن ، وأشرك معه مستقلا آخر وزيرا للخارجية هو عبد الخالق ثروت . واشترك فى الوزارة كثرة من الوفديين وقلة من الأحرار الدستوريين ، وتقلد سعد رياسة مجلس النواب وحسين رشدى رياسة مجلس الشيوخ وأخذت البلاد تُحْكَمُ حكما دستوريا سليما . وظلت هذه الدورة البرلمانية قائمة طوال الصيف حتى مطلع سبتمبر . وظل الائتلاف بين حزبى الوفد والأحرار الدستوريين وثيقا .



تحول الفتى فى أول العام الدراسى الجديد إلى معهد الزقازيق الدينى الثانوى ؛ ليكمل دراسته الأزهرية فيه ، وكانت هذه أول غربة له عن أبويه وأسرته ، وانتظم بين طلاب المعهد الجديد ، ونزل معهم فى مسكن بسيط كان ملحقا بالمعهد ومعداً له ولأمثاله من الطلاب الغرباء ، وهو ردهة واسعة بها مجموعة كبيرة من الأسرة ولكل طالب سريره وصوانه (دولابه) الخاص .

ورأى الفتى أن يترك هذا المسكن لأنه بعيد عن مطاعم البلدة وسكن فى منزل قريب من المعهد . وأكبَّ على الدروس والمتون والشروح وشروح الشروح يحاول أن يستوعب المواد العلمية فيها ، وهو مع ذلك يحاور شيوخه ويناقشهم ويجادلهم فى كثير من مسائل العلمِ الذى يعرضونه ودقائقه .

وكان الفتى يكب بالقراءة على ما يظهر من مقالات أدبية فى صحيفتى البلاغ

الوفدية والسياسة الدستورية وملحقيهما الأسبوعيين وكانت تُكتَبُ فيهما فصول طريفة عن الفكر والأدب العربيين وكذلك عن الفكر والأدب الغربيين ، وكان طه حسين قد نشر كتابه : « فى الشعر الجاهلى » وأثار به ضجة كبيرة فى الأجواء الأدبية وفى الكتابات الصحفية ، إذ نقد الأساليب المتبعة فى دراسة الأدب العربى ساخرًا منها سخرية شديدة مع دعوة ملحة إلى اتخاذ منهج بعض الفلاسفة الغربيين القائم على الشك بحيث ينبغى أن يشك الباحث فى هذه القصيدة أو تلك من قصائد الشعر الجاهلى حتّى تثبت له صحتها ، بل لا بأس من الشك فى الشعر الجاهلى جميعه حتّى يطمئن الباحث إلى صحته .

وذهب طه حسين إلى أن الكثرة من هذا الشعر ليست جاهلية وإنما هى منتحلة ، وأخذ يعدد عوامل الانتحال ، وذكر من بينها عاملا دينيا كان له أثره بجانب العوامل الأخرى فى انتحال الشعر الجاهلى ، وانزلق فى ذلك إلى كلام عُدَّ دليلا على إلحاده .

وثارت ضد طه حسين موجة حادة من النقد العنيف ، قيل فى أثنائها إن الجامعة المصرية تنفق عليها الدولة فكيف يسمح لأستاذ الأدب العربى الذى يتناول مرتبه منها أن يعلم الطلاب فيها مثل هذا الإلحاد المنكر ؟ وكيف يبيح له المسئولون فى الجامعة نشر هذه الأفكار للطلاب ؟. واتسعت الحملة وملأت الصحف وتعدتها إلى البرلمان ، وقدم طه حسين إلى الجامعة استقالته ، ولولا سعة أفق الحكومة لطوّح به ، فقد رُدَّت إليه استقالته ، واكتُفى بمصادرة الكتاب . وكانت النيابة قد حققت معه ، وثبت لها حسن نيته ، وأمرت بحفظ الدعوى . ومرت العاصفة سياسيا ، ولكن ظل لها دوى واسع فى الأوساط الأدبية ، وألفت كتب مختلفة فى الرد على طه حسين . وأعاد طبع الكتاب باسم جديد هو « فى الأدب الجاهلى » وقد صوَّر فيه مناهج النقد الغربى فى دراسة الأدب .

وحدث ثان فى هذا العام الدراسى كان له دوى بعيد فى العالم العربى وأوساطه الأدبية هو انعقاد مهرجان كبير برياسة سعد زغلول لتكريم شوقى شاعر مصر الحديثة اشتركت فيه جميع البلاد العربية بمندوبين من كبار أدبائها وشعرائها كى يضعوا على مفرقه - مع كبار الأدباء والشعراء فى مصر - تاج إمارته للشعر العربى الحديث وشعرائه المعاصرين على اختلاف بلدانهم وأقطارهم . وقد حياهم شوقى برائعة من روائعه ، أُلقيت فى المهرجان بدار الأوبرا استهلها بالحديث عن وصف الربيع وعن شكره لسعد زغلول ، ثم أخذ يثنى ثناءً عاطرًا على مبايعته بإمارة الشعر من أبناء العرب قاطبة ، وكيف تحولوا بمصر إلى عكاظ ثانية .

وينوه بمصر وحَمْلها لهيكل الدين وروح البيان من قرآنه ، وكيف أنها تقف بشاعرها مع الشرق فى أفراحه وأحزانه ، وجراحه وأشجانه . وأخرجت مجلة السياسة الأسبوعية عددًا خاصا بهذا المهرجان وما أُلقى فيه من خطب وأشعار رائعة فى تكريم شوقى ومن بحوث أدبية طريفة . وكان عددا نفيسا ظل الفتى يحتفظ به لنفسه سنين عددا .

وكانت تتولى مقاليد الأمور طوال هذا العام الدراسى وزارة عدلى يكن ، بينما كان يتولى رياسة مجلس النواب سعد زغلول وظلت له نفس المحبة والزعامة فى قلوب المصريين . وسارت شئون الحكم رخاء ، وخرج من الخدمة فى محكمة الاستئناف آخر مستشار بريطانى ، وصدر قانون عفو شامل عن كل ما اقتُرف من الجرائم السياسية منذ حُلّ مجلس النواب فى وزارة زيور ، وأُلغى تسخير الأهالى للعمل فى تقوية جسور النيل .

ويقدِّم عدلى يكن استقالته فى أبريل سنة ١٩٢٧ ويصر عليها ويلح عليه سعد أن يبقى فى الحكم ويتمادى فى إصراره . ويرغب سعد إلى ثروت فى تأليف الوزارة ويؤلفها فى نفس الشهر من أغلبية وفدية وأقلية دستورية ، ويظل الائتلاف قائما

بين الحزبين الحاكمين ، وفى شهر يولية يذهب ثروت إلى لندن للمفاوضة فى عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا .

وما إن حلّ اليوم الثالث والعشرين من أغسطس حتى تجهمت سماء مصر وتلبّدت بغيوم كثيفة وأخذت ترعد وتبرق بنبأ وفاة زعيم الأمة الخالد وقائد نهضتها وموقظها ورادّ حقها عليها فى تقرير مصيرها بعد مئات السنين : سعد زغلول . وكان الناس فى مصر يتلقون الخبر بالوجوم ، وسرعان ما ينفجرون باكين حتى العجائز والصبية ، فقد كان الجميع يشعرون بهول الفجيعة فقد اختطف منهم أبو الوطن البار الذى رَدَّ إلى مصر وجودها وشخصيتها وأعدَّها لتظفر بكل ما اكتسبته سياسيا مع أنها لم تكن تملك سلاحا سوى سيوف كلماته الحادة القاطعة .

واشترك الشرق كله فى الشعور بعظم المصاب ، إذ عُدَّ سعد زعيم كل الشعوب المهيضة الجناح أمام المستعمرين الغاشمين ويكفى أن غاندى زعيم الهند على بعد داره شهد بأنه زعيمه ، عنه تلقى دروس الوطنية الصارمة فى المفاوضة الصامدة حتى آخر الأنفاس .

وباتت الأمة على النشيج والنواح ، حتى إذا كان الصباح أخذت الجماهير تتدفق إلى منزل الزعيم سيولا جارفة وظلت الطرقات تمتلئ بأمواجها تعج وتضج من منزله إلى قبره المؤقت بحى الإمام الشافعى واستمرت الصحف المصرية تنعاه وتبكيه أياما متوالية ، وظلت تنقل نعى الصحف العربية والأجنبية .

واجتمع مجلس الوزراء وقرر إقامة ضريح له فى القاهرة تخليدًا لذكراه وإقامة تمثالين له : تمثال فى مصر وتمثال فى الإسكندرية وشراء منزله « بيت الأمة » وضمه إلى ممتلكات الدولة وأن تظل زوجته العظيمة « صفية زغلول » تسكنه مدى الحياة ، وكل ذلك نفذته الحكومة .

وكان الفتى قد اجتاز السنة الأولى الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى إلى السنة

الثانية ، وعلى عادته كان يعكف على قراءة المتون والشروح طوال العام الدراسى .
وكان الائتلاف مستمرًا بين حزبى الوفد والأحرار الدستوريين ، وانتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد بعد سعد زغلول ، وعاد ثروت من مفاوضته لتشمبرلن وزير الخارجية البريطانية فى نوفمبر يحمل مشروعا منكرًا لمعاهدة بتثبيت الاحتلال والحماية وتوثيقها ، وظل يخفيه طويلا ولا يستطيع إعلانه ، وفى هذه الأثناء وُضع الحجر الأساسى للجامعة المصرية فى فبراير سنة ١٩٢٨ مما هيأ - فيما بعد - لإحداث نهضة البلاد العلمية والأدبية .

وعُرض مشروع المعاهدة التى يحملها ثروت على مجلس الوزراء فى مارس فرفضه واستقال ثروت ، وشكل مصطفى النحاس وزارته الأولى من حزبه وحزب الأحرار الدستوريين ، واستقال الأخيرون من الوزارة فى يونية سنة ١٩٢٨ وانتهز القصر الفرصة وأقال النحاس فى نفس الشهر إقالة غير دستورية لأنه زعيم الأغلبية البرلمانية والدستور يمنع ذلك منعا باتا . وشكل محمد محمود زعيم الأقلية الدستورية الوزارة فأجّل البرلمان شهرًا ثم حلّه على نحو ما صنع زيور من قبل وزاد عليه تأجيله انعقاد البرلمان ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وكانت صحف الوفد تحمل عليه حملات عنيفة .

وكان الفتى يشعر بوضوح أن الجو العلمى فى معهد الزقازيق الثانوى أقل بكثير من مثيله فى المعهد الابتدائى بدمياط ، وربما كان مرجع ذلك إلى أن معهد الزقازيق كان معهدا مستجدا فى بيئته ، ولم يكن شيوخه من نفس البلدة بل كانوا من بلدان شتى فى القطر ، بخلاف معهد دمياط الابتدائى فهو معهد دينى قديم بها ، له أصول فى المدارس التى أنشأها المماليك مثل قايتباى ومَنْ قبله وأيضاً مَنْ جاءوا بعده . وكانت المدارس تنشأ فى المساجد والجوامع الكبيرة ، وقد مضت تعد شيوخاً فى الحقب الماضية حتى سُمّى الأزهر المدارس الكبرى فى تلك الجوامع والمساجد

معاهد ، حينئذ أصبح لدمياط معهدها الديني بجامع البحر .

وأكثر شيوخ هذا المعهد الديني الذين تلقى عليهم الفتى دروسه كانوا من نفس دمياط ، من سلالة علمائها النابهين ، وكانت تتوارث ذلك منهم أسر تشتغل بالعلم الديني ، يأخذه اللاحق عن السابق والخالف عن السالف . وكان بين هذه الأسر تنافس علمي عظيم ، كان يظهر في دروس حرة لهم يلقونها ببعض المساجد لمن يريد الفائدة والاستبصار في دينه من عامة الشعب الدمياطي ، ولا مانع لأي دارس من أن يجلس إلى حلقة الشيخ ويناقشه ويحاوره . وكانت دروسهم للطلاب في المعهد الديني بجامع البحر أشبه بدروس حرة ، إذ لم تكن تُلْقَى - مثل دروس معهد الزقازيق الديني - في حُجَرٍ أو غرف مقفلة ، يجلس الطلاب فيها على مقاعد مثل تلاميذ المدارس المدنية ، بل كانت تُلْقَى بساحات الجامع في حلقات ، والطلاب يجلسون على حُصُر مكونين ما يشبه نصف دائرة حول كرسي الشيخ ولا مقاعد ولا غرف ولا أبواب بل ساحات فسيحة لكل من شاء .

ولم يكن التنافس بين علماء دمياط وأسرها يقف عند حد إجادة الدروس في المعهد الديني ، تلك التي تُلْقَى دون أي حجاب ، إذ كثيرا ما كان عالم يجلس إلى حلقة عالم آخر للحوار في بعض المسائل التي تعرض في الدرس ، وحدَّث الفتى أبوه أنه رأى - حين كان يحضر قبله في هذا المعهد ويدرس فيه - عالمين من أسرتين علميتين تناظرا في موضوعات علمية ذات يوم من بعد صلاة الصبح حتى المساء إلا أن يقوما للصلاة أو لتناول بعض الطعام ، وسرعان ما يعودان إلى المناظرة ، وعادا إليها في اليوم التالي حتى صلاة الظهر ، وكان يَرْفد كلاً منهما في المناظرة ابن لكل منهما عالم من شيوخ المعهد الديني . ولعل في ذلك كله ما يصور مدى ما كان يحفل به الجو العلمي في معهد دمياط الديني الابتدائي من نشاط في الدراسات الدينية وما يتصل بها من الدراسات اللغوية .



كان الفتى يعكف على قراءة المقالات الأدبية فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، ودفعه إعجابه بأصحاب هذه المقالات إلى اقتناء بعض كتبهم ، فازداد بهم إعجابا ، ولعل ذلك هو الذى جعله يفكر فى الالتحاق بمدرسة دار العلوم وتَرْك الطريق الذى كان أبواه اختاراه له : طريق التعليم الدينى فى الأزهر الشريف ، إذ ظن أن دار العلوم ستساعده فى تكوينه الأدبى بأكثر مما تساعده الدراسة الأزهرية . وكانت لها مدرسة ثانوية تسمى التجهيزية تعدّ الطلاب للالتحاق بها إعداداً علميا ، فهم يأخذون فيها مواد المدارس الثانوية المدنية من رياضة وطبيعة وكيمياء ويتميزون من طلاب تلك المدارس بمواد خاصة بهم من فقه وعلم كلام وتفسير وحديث نبوى ، أما فى النحو والصرف والأدب فيشتركون معهم فى نفس مناهج الدراسة .

وأخذ الفتى يعدُّ نفسه طوال الصيف للالتحاق بها في السنة الرابعة ، وكانت التجهيزية تعقد لذلك امتحانا فى آخر الصيف ، فمضى الفتى يدرس كتب الكيمياء والطبيعة والرياضة دون معلم شاعرًا بغير قليل من المشقة إذ يدرس مثلا الكيمياء بدون أن يرى أى تجربة لها فى معمل ، واستطاع أن يجتاز تلك الصعوبة وما يماثلها فى الطبيعة والرياضة مما يحتاج إلى معلم يشرحه ويوضحه . ونجح فى الامتحان ، وانتظم بين طلاب التجهيزية بالقاهرة فى العام الدراسى ١٩٢٨ / ١٩٢٩ .

وكان يعلِّم فى التجهيزية صفوة ممتازة من شيوخ لم يتخرجوا فى مدرسة دار العلوم وإنما تخرجوا فى مدرسة القضاء الشرعى ، وكان ناظرها عاطف بركات قد أكمل تعلمه بعد تخرجه فى دار العلوم بإنجلترا ، وعاد بأفكار جديدة رأى تطبيقها فى مدرسة القضاء الشرعى ، وحاول جاهدًا أن يجعل منها جامعة صغرى ، فكان يتحدث إلى الطلاب فى ردهاتها ويعرض عليهم بعض المشاكل الفكرية ويحاورهم فيها ، ودفع أساتذة المدرسة وشيوخها إلى محاكاته فى الحوار مع الطلاب ، وبذلك استحالت ردهات مدرسة القضاء الشرعى إلى أروقة فكرية نشيطة . وكان يدرس للطلاب علم الأخلاق مستمدًا فيه من كتابات الغربيين . وعمل – بكل جهده – على أن يتمثل طلاب المدرسة الثقافتين : الإسلامية العربية والأجنبية الغربية ، وكان لذلك أثر عميق بعيد فى خريجى مدرسة القضاء الشرعى .

ولما أُنشئت المدرسة التجهيزية لدار العلوم اختير لها أكثر مدرسيها من خريجى تلك المدرسة ، فجاءوها بالروح التى بثها عاطف بركات فيهم وفى مدرستهم ، مما جعلهم يدفعون بقوة طلاب التجهيزية إلى مناقشتهم فى كل ما كانوا يلقونه على مسامعهم من دروس الفقه والتفسير والحديث والكلام أو مسائل التوحيد . وكانوا يلقون دروسهم فى شكل محاضرات لا قراءة فى الكتب على الطريقة الأزهرية .

وكانت المدرسة قريبة من ميدان عابدين الحالى بالقاهرة ، فسكن الفتى فى حى

وراءها يسمى حى الحنفى ، وشعر بغبطة حين سكن هذا الحى ، لأنه كان يعرف ان شوقى الشاعر المبدع سكنه فى مطالع حياته ، وكان يعجب به ، ولكن شتان بين مسكن شوقى ومسكن الفتى ، شتان بين قصر وخدَمه وحشمه وكوخ أو قل حجرة متواضعة كانت منامة للفتى ومطعما ومكتبا .

وعرف الفتى أن شيوخا كبارًا يحاضرون الناس فى الجامع الأزهر بعد صلاة الصبح جمهورهم من طلاب الأزهر والشباب من شيوخه ، وهم يجلسون على مقاعد مرتفعة ، ولكل منهم حلقته وجمهوره وطلابه . ولا يتقيد أى مستمع بحلقة معينة ، بل يجلس فى أى حلقة كما يشاء ، أو بعبارة أدق يجلس إلى أى شيخ يختاره ، فالحلقات مباحة للجميع .

ولم يكن الفتى يعرف أن وراء هذه الحلقات فى الأزهر دراسات غير نظامية وخاصة للغرباء ، فهم يحضرون على شيوخ مختلفين كما يريدون غير متقيدين بسنوات ولا بامتحانات ، وما يزالون يترددون من حلقات هؤلاء الشيوخ ، حتى إذا أنسوا فى أنفسهم القدرة على أداء امتحان العالمية (شهادة الأزهر العالية النهائية حينئذ) تقدموا إليها ، فإما كان من حظهم النجاح ، وإما أخفقوا ولم يكتب لهم النجاح المظنون ، فيعودوا إلى الاستماع إلى الشيوخ والتزود ثانية للامتحان فى العام القابل ، إذ يعيدون الكرَّة ، وربما أعادوا الكرات ، حتى يحصلوا على تلك الشهادة .

وبجانب هذه الدراسات الأزهرية الحرة للطلبة غير النظاميين كانت هناك الدراسات المتظمة التى بدأها الفتى فى معهد دمياط الابتدائى ومضى يستكملها فى معهد الزقازيق الثانوى ، وكان مفروضا إذا أتمه أن يتحول منه إلى القسم العالى فى الأزهر ، فيمضى فيه أربع سنوات تختتم بامتحان الشهادة العالمية النظامية . وهذا القسم النظامى كانت تتبعه الدراسات الأزهرية فى معاهد الإسكندرية وطنطا وأسيوط والزقازيق ودمياط لهذا التاريخ .

وظل القسم غير النظامى قائما فى الأزهر مدة غير قليلة ، وهو القسم الأقدم ، وكأن دروس الشيوخ الكبار بعد صلاة الصبح – وربما جعلها بعضهم فى المساء – صورة من هذا النظام القديم ، كان ينهض بها بعض شيوخ الأزهر النابهين ، وكان يحضرها بجانب طلاب الأزهر وعلمائه الشبان كثيرون من مختلف الأوساط بين المثقفين . وكان من هؤلاء الشيوخ من يختار لنفسه ولمحاضراته مسجدا آخر غير الأزهر يلقى دروسه فيه ، ويختلف إلى المسجد الذى اختاره طلابه وجمهوره المتتفع بعلمه .

ولا شك فى أن هذه الطريقة الحرة فى التعليم الأزهرى غير النظامى كانت جيدة ، وكان الفتى يعجب بها ، فالشيوخ يلقون دروسهم ومحاضراتهم ولا حضور يسجَّل للطلاب ولا غياب أو لا تقييد لحضور أو لغياب فهم أحرار يتحلقون حول من يرغبون فى التزود العلمى منه ، ولهم أن يختاروا هذا الشيخ أو ذاك وأن يجلسوا إلى هذه الحلقة أو تلك حسب رغبتهم ومشيئتهم . وعرف الفتى – فيما بعد – أن الجامعات الألمانية تأخذ بشىء من هذا النظام الأزهرى القديم ، إذ تسمح للطلاب أن يستمعوا فى بعض المواد العلمية إلى هذا العالم أو ذاك .

وكأنما نظرت إلى الطريقة الأزهرية القديمة الجامعات الأمريكية والأوربية التى تأخذ بنظام الفصول ، وهو نظام يتيح للطلاب الجامعيين المتخصصين فى فرع من فروع العلم والأدب أن يختاروا بعض المواد ويؤثروها على مواد أخرى بحيث يكون للفرع مواد أساسية يتحتم على كل طالب من طلابه أن يعنى بدرسها ، ويدرس بجانبها مواد متنوعة من الدراسات الإنسانية أو العلمية أو الفنية . وللطلاب الحرية كل الحرية فى اختيار هذه المواد الإضافية حسب رغباتهم فتجد متخصصا فى فرع من فروع الآداب قد يختار الرياضة أو فرعا منها أو يختار فنا كالموسيقى . ولا يتيح هذا النظام الفصلى للطالب فقط الحرية فى اختيار المواد الإضافية التى يدرسها بل يتيح

له أيضا اختيار الأساتذة الذين يرى من حقه أن يدرس عليهم ويستمع إلى محاضراتهم .

وواضح أن تلك الطريقة الفصلية فى التعليم الجامعى الأمريكى والأوربى تلتق بالطريقة الأزهرية القديمة ، ولا نغلو إذا قلنا إن الطريقة الأزهرية المذكورة كانت أوسع حرية . وكان حريا بمن أنشئوا التعليم الجامعى فى مصر أن يفيدوا منها – منذ إنشائه – لا بإدخالها جملة فى هذا التعليم ، بل بالاستفادة بها والاسترشاد . وحقا استرشد بها طه حسين حين أصبح عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فأنشأ بها نظام المستمع الحر من غير طلاب الكلية حتى يختلف المستمع إلى ما يريد من محاضرات الأساتذة فى الكلية ، غيرأن هذا النظام لم يثمر الثمرة المرجوة لفقده الغاية الواضحة منه . وكان أولى من ذلك الاهتداء بفكرة المحاضرات غير النظامية التى لا تؤدّى فيها امتحانات ، ومع ذلك كانت من أهم الوسائل الأساسية فى تكوين العقليات الأزهرية الممتازة ، إذكان كثيرون من الطلاب الأزهريين يوالون حضورها ويستمعون فيها إلى أفكار الصفوة من شيوخ الأزهر ، ويرون رؤية واضحة كيف يتناولون المسائل وكيف يعالجونها وكيف يستنبطون ببصائرهم النافذة آراءهم الدقيقة .

وخير ما يصور ما كان لهذه المحاضرات غير النظامية من آثار بعيدة لا فى الأزهر وبين علمائه فحسب بل أيضا فى الفكر المصرى الحديث محاضرات الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى بالأزهر الشريف وما كوّنت من تلاميذه ومريديه ، بل من مدرسته التى اتسعت آفاقها ، فشملت العالم الإسلامى جميعه .

وكان ينبغى أن تفيد بعض الكليات الجامعية – على الأقل – عند إنشائها من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية ، فمثلا لو أن كلية الحقوق نُظِّمت بها محاضرات على شاكلة المحاضرات الأزهرية غير النظامية لبعض الشخصيات القانونية الممتازة

المشهورة حينذاك لانتفع بها الطلاب الحقوقيون أكبر نفع : محاضرات لا يمتحن فيها الطلاب وتعود عليهم بفوائد عظيمة ، إذ يرون مشاهد رائعة لعقول قانونية ، يأخذون عنها أفكارها وتجاربها وخبراتها وتحليلاتها لبعض مواد القانون المدنى مثلا أو القانون الجنائى أو غيرهما من القوانين . والفرصة لا تزال سانحة إلى اليوم ، ليدخل شيء من ذلك فى الدراسات الجامعية فتنظم فى كل كلية محاضرات عامة لبعض الأساتذة القدامى ، ومن لم يستطع أداءها أسبوعيا أداها شهريا أو من حين إلى آخر على مدار العام الدراسى .

ومن المحقق أن هذه المحاضرات غير النظامية فى الأزهر الشريف كانت تحدث تنافسا قويا بين الشيوخ إذ كان كل منهم مهددا بأن ينصرف عنه الطلاب إلى زميله ، لما ذكرت من أنه كان من حقهم أن يحضروا لمن يرغبون فى الاستماع إليه ، وأن ينصرفوا عن غيره حسب مشيئتهم ، وكان معولهم فى ذلك على مادة الشيخ العلمية . ومن أجل ذلك كان لابد لمن يجلس إلى الطلاب فى تلك المحاضرات أن يكون عالما غزير العلم فى مادة محاضراته ، ولابد أن يكون من ذكاء القريحة ومن نفوذ البصيرة بحيث يعد حُجَّة فيها ، حجة لا يبارَى ولا يجارَى .

ومن كان يقعد للطلاب ويسمعونه ويجدونه غير أهل لمقعده لا يعودون إليه أبدا . وبذلك كان تحلق طلاب الأزهر وشباب العلماء من خريجيه وتجمعهم حول شيخ وإصغاؤهم لكلامه شهادة لا تعد لها شهادة ، بأنه عالم يفقه العلم الذى يحاضر فيه فقها أعمق الفقه ، ويحلل مسائله تحليلا أدق التحليل . ومعنى ذلك أن شهادة العالمية التى كان يحصل عليها أحد هؤلاء الشيوخ الذين ينهضون بتلك المحاضرات لم تكن هى التى تسوغ له الاضطلاع بها والتفاف جمهور حول مجلسه بل كانت خبرته العلمية الطويلة وكفاحه العلمى الشاق هما اللذان يتيحان له هذا العمل الرفيع .

وحبّذا لو عُنيت الجامعات المصرية - كما قلنا - بشيء يقترب من هذه الطريقة على الأقل من حيث العناية بالمحاضرات العامة يلقيها صفوة من العلماء فى كل كلية . أما الطريقة بحذافيرها وأن يكون لكل مادة أكثر من أستاذ وأن يتخير الطالب الأستاذ الذى يدرس عليه المادة فإن ذلك يعزُّ تحقيقه الآن لقلة أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات ، ولعلهم يتضاعفون فى المستقبل بحيث يمكن أن يكون للمادة الواحدة فى الفرقة الواحدة أكثر من مدرس وأستاذ ، ليختار الطلاب منهم من يشاءون ، وبذلك تتسع المنافسة بين علمائنا وتزداد نهضتنا العلمية ازدهارا .

وكان الفتى كثير الاختلاط بطلاب الأزهر وببعض مدرسيه وعلمائه من أقربائه الذين تخرجوا فيه ، وعرف منهم أن امتحان العالمية فى الأزهر ليس امتحانا تحريريا فحسب بل كان أهمَّ من الامتحان التحريرى حينئذ امتحان شفوىّ عسير فى موضوع يختاره الأزهر للطالب فى الفقه أو فى الأصول أو فى غيرهما من العلوم ، ويظل يعَده أياما طوالا لا يكاد يترك فيها كتابا تناول المادة العلمية فيه وما يتصل بها إلا ويقرؤه .

وما يزال الطالب مكبًّا على موضوعه يدرسه من جميع جوانبه العلمية حتى إذا حُدِّد له يوم الامتحان أحسَّ برهبة شديدة ، لأنه سيجلس إلى لجنة من كبار العلماء ويناقشونه فى الموضوع وكل ما يجرى فيه من أحكام وأفكار ، ولا يتركون فى الموضوع جانبا فقهيا أو أصوليا أو نحويا أو بلاغيا إلا ويسترسلون معه فى الأسئلة المتصلة به يريدون أن يعرفوا كل ما عنده ، وهل هو صالح ليحمل شهادة العالمية الجليلة ، أو لا يزال يحتاج إلى إعداد أوسع وأكبر .

وكانوا يسمون الموضوع المحدد للطالب درسه باسم خاص هو « التعيين » لأنه عُيِّن له وحدد ، وكان يوم امتحانه فيه يوما مشهودا ، لصعوبة الامتحان وصعوبة ما يُطْرح فيه من أسئلة تلم بجميع ما درس الطالب فى الأزهر طوال سنيه من المواد

العلمية . ومن أجل ذلك كانت شهادة العالمية تشهد لمن يحملها بأنه عالم ديني يتقن علوم الدين فهما واستيعابا وتحليلا .

وفى مطلع العام الدراسى للفتى بالتجهيزية صدعت المدارس فى تركيا لمشيئة مصطفى كمال فى تغيير الخط التركى فى تعليم الناشئة بالخطِّ اللاتينى وحروفه ، وكان قد أصدر أمرًا بذلك فى شهر أغسطس وأخذت المدارس التركية فى تطبيقه منذ شهر نوفمبر ، وأثار ذلك ضجيجا كبيرًا فى الصحف المصرية ، فكان هناك مؤيدون لمصطفى كمال فيما يريد من تغريب بلاده أو جعلها مثل البلاد الغربية متخذًا لذلك وسائل عدة ، من أهمها هذه الوسيلة الخطية فى ظنِّه وتقديره .

وكان هناك معارضون لا يحبذون لتركيا هذا الاندفاع الشديد نحو تقليد الغرب . ومحاولة محاكاته فى كل شىء حتى فى الكتابة وحروفها ومعروف أن تغيير الأمة لخطِّها ليس من القوى الدافعة لها كى تحدث ما تريد من التطور ، إذ المهم ما تحمل حروف الخط من المعارف والعلوم والآداب . وما الخطّ إلا آنية تودع الأمة فيها شرابها العلمى والأدبى والفكرى ، شرابا مختلفا ألوانه ، والمهم الشراب لا الآنية التى تحمله .

وأهم من ذلك أن تغيير الأمة لخطها من شأنه أن يعرضها لخطر عظيم إذ بذلك تقطع الصلة بين حاضرها وتراثها الماضى جميعه ، لأنه مكتوب بخط مغاير لخطها الجديد ، ولن يمرَّ جيل حتى يصبح خطها وتراثها القديم نسيا منسيا . وكان الخط القديم تُدْرَس به فى المدارس بجانب التركية اللغتان : العربية والفارسية ، فأمر مصطفى كمال بإلغاء هاتين اللغتين من المدارس التركية ، وبذلك قطع الرابطة – التى كانت لا تزال باقية – بين تركيا والبلاد العربية .

وكان الفتى طوال هذا العام الدراسى فى التجهيزية يحس بوضوح محنة مصر حينذاك باجتيازها لدورة قاتمة من دورات حياتها الحديثة ، إذ كان يحكمها محمد

محمود - رئيس الأحرار الدستوريين - حكمًا صارمًا أهدرت فيه الحياة الدستورية والحريات العامة إذ مُنعت منعا باتا الاجتماعات وحرّم على الطلبة القيام بالمظاهرات ، وقُيدت الأقلام ، وحُجبت عن الظهور بعض الصحف وخاصة الوفدية ، وامتد ذلك أحيانًا أشهرًا معدودات . ومن حين إلى حين كانت تذهب بعض الجموع - وخاصة من أعضاء البرلمان - إلى القصر للاحتجاج على هذه الوزارة وانفرادها بحكمها الاستبدادى دون الشعب وإرادته ، ولكنها كانت دائما تُردّ دون غايتها - بواسطة الشرطة وعصيها الغليظة - ردًّا غير كريم .

ومبالغة فى الكيد لمصطفى النحاس خليفة سعد فى زعامة الوفد ومحاولة فى تأليب الشعب عليه وعلى حزبه الوفدى لفقت هذه الوزارة عليه وعلى اثنين من زملائه المحامين اللامعين فى الحزب تهمة الإخلال بشرف مهنتهم فى قضية لأحد الأمراء ولم تلبث أن أحالتهم إلى مجلس المحامين فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، واهتز الشعب لهذه القضية هزة قوية ، وترافع فيها مدافعا عن النحاس وزميليه مكرم عبيد ونجيب الغرابلى وغيرهما من كبار المحامين الوفديين ، وحكم مجلس التأديب ببراءتهم ، وتبين أنها قضية مختلقة مزورة . وكانت تشد الفتى دائما المرافعات حينئذ فى القضايا السياسية إذ كانت الصحف تنشرها وكان يترافع فيها أقوى المحامين فى مصر حجة وأفصحهم لسانا وأبلغهم بيانا .

وتصادف أن حزب العمال البريطانى ظفر بالأغلبية فى الانتخابات العامة بإنجلترا فى سنة ١٩٢٩ وتولى هذا الحزب مقاليد الحكم ، فسعى محمد محمود - وكان فى لندن - فى عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا ، وبدأت فى شهر يونية مفاوضات رسمية بينه وبين هندرسن وزير الخارجية البريطانى ، ظلت نحو شهرين وانتهت بمشروع معاهدة ، قدم به محمد محمود إلى مصر آملا أن يوافق عليه الوفد ، وهو باق مع وزارته فى كراسى الحكم ، غير أن الوفد أبى النظر فى مشروع تلك المعاهدة

إلا بعد عودة الحياة الدستورية وإجراء الانتخابات ، ولم ير محمد محمود بدًا من تقديم استقالته ، فقدمها فى شهر أكتوبر ، وبمجرد تقديمه لها ألف الوزارة عدلى يكن لإعادة الحياة الدستورية وإجراء انتخابات حرة سليمة .

وكان الفتى قد عاد إلى القاهرة للانتظام فى العام الدراسى الأخير بالتجهيزية وكان حين دخلها تحول من لبس الزى الأزهرى إلى لبس الزى الإفرنجى ، وغريب شأن الإنسان فإن كثيرًا من الأشياء الخارجية يترك تأثيرها فى نفسه حتى أتفه الأشياء ، فما بالنا بزى يرمز إلى الدين ودراساته وزى يرمز إلى الحياة المدنية وبعض العادات الغربية ، ولا ريب فى أن هذا التغيير الخارجى للزى ترك فى نفس الفتى آثاراً بعيدة ، لعل أوضحها أنه أصبح أكثر استعدادًا لتقبل ما كان يدور على أقلام الأدباء حينئذ من دعوة للتجديد ، وكان يعجب بشيوخه فى التجهيزية وخاصة خريجى القضاء الشرعى لكثرة ما كانوا يثيرون فيه وفى رفاقه من الأفكار ، وكانوا حريصين على أن يلفتوهم إلى ما كان يكتب فى الأدب من مقالات فى البلاغ الأسبوعى والسياسة الأسبوعية وفى مجلتى الهلال والمقتطف .

ولفت الفتى ما كان يكتب فى مجلة العصور ، وخاصة ما كان يكتبه مصطفى صادق الرافعى عن ديوان العقاد وقد جمع ما كتبه من مقالات فى تلك المجلة عن هذا الديوان ونشره فى كتاب سماه « على السفود » وهى الحديدة التى يشوى عليها اللحم . وكان الفتى يحس أن الرافعى يتجنى على العقاد فى كثير من نقده لشعره ، وأنه لا يبتغى تحليله ولا بيان مواطن الجمال فيه والروعة ، وإنما يبتغى ذمه وثلبه بلغة ليست من لغة النقد فى شىء ، لغة هجاء قاس مرير ، يتخذ فيها البيت من أبيات العقاد ، بل الكلمة فى البيت ، خيطا أو حبلا ينشر عليه هجاءه الجارح .

وكان العقاد قريبا قربا شديدًا من نفوس الشباب إذ كان كاتب حزب الوفد غير منازع ، وكان هو الحزب الذى يتبعه سواد الأمة ، ويتبعه الشباب فى التجهيزية

وغير التجهيزية . وكان شيوخ الفتى – وخاصة الخريجين من مدرسة القضاء الشرعى – ينزعون منزعا وفديا متطرفا ، إذ كانت مدرستهم وفدية متطرفة لقيام عاطف بركات عليها ، وكان من أقرباء سعد ونفى معه إلى جزائر سيشل سنة ١٩٢١ وكان طلابه يحبونه حبا جمًّا . ومصر نفسها جميعها كانت وفدية إلا قليلا من الإقطاعيين ومن حفوا بهم فى مدارهم ومدار القصر. ومهما يكن فقد كان شيوخ الفتى فى التجهيزية يكثرون له ولرفاقه من الحديث عن العقاد مكبرين له ، لكتاباته السياسية الوفدية من ناحية ، ولكتابته الأدبية البارعة من ناحية ثانية . فكان الفتى يقرأ فيه كثيرا فى نثره وشعره ، كما كان يقرأ فى كتابات هيكل وطه حسين والمازنى ، وبحق كان الأربعة يحملون حينئذ ألوية النهضة الأدبية .

وكان مقررًا على الفتى ورفاقه فى هذا العام الدراسى الأخير بالتجهيزية تفسير مجموعة من أجزاء القرآن الكريم ، وكان يفسرها لهم شيخ حصيف من شيوخ مدرسة القضاء الشرعى هو الشيخ على حسب الله . وكان الفتى يكثر معه من الحوار فى فهم بعض الآيات الكريمة ، وكان الشيخ يصغى إليه ويستجيب لبعض آرائه .

ورأى الفتى أن يبادر إلى صنع تفسير لهذه الأجزاء المقررة يعتمد عليه فى استذكاره الدروس آخر العام الدراسى ، ولكن أى كتب التفسير يستعين بها فى هذا العمل ؟ لقد رأى أن يستعين بتفسير الكشاف للزمخشرى ، وكانت له شهرة عريضة منذ تأليفه له حتى بين أهل السنة ، مع أن الزمخشرى كان من المعتزلة وهو يبث فى تفسيره كثيرا من آراء المعتزلة ، مما جعل بعض أهل السنة يتصدى للرد على آرائه الاعتزالية فى تفسيره . ومع ذلك كان جمهور أهل السنة يعجبون بهذا التفسير منذ ظهوره وينصحون طلابهم بقراءته لما امتاز به من جمال الصياغة ، ولما نثره فى تفسيره من نظرات بلاغية جيدة .

ووضع الفتى تحت بصره هذا التفسير وضم إليه تفسير البيضاوى السنىّ ، ونفذ

من التفسيرين إلى وضع تفسير مقتضب للأجزاء القرآنية المقررة عليه وعلى رفاقه . وكانت هذه هى المحاولة الثانية للفتى فى التصنيف بعد تصنيفه القديم فى النحو بمعهد دمياط الدينى أيام صباه . ولم يحتفظ الفتى بهذا التصنيف فى التفسير كما لم يحتفظ بتصنيفه السابق فى النحو ، حتى إذا تقدمت به السن تمنى لو أنه احتفظ بالعملين للمستقبل ، إذن لعرف كيف كان يصنف وهو صبى صغير ثم كيف كان يصنف وهو فتى فى التاسعة عشرة من عمره .

وكان عدلى يكن قد أخذ – منذ توليه الحكم – يعد العدّة لانتخابات مجلس النواب ، وأجراها فى شهر ديسمبر وفاز فيها الوفد فوزًا ساحقًا كعادته فى كل انتخابات حرة . وكان الأحرار الدستوريون بزعامة رئيسهم محمد محمود قرروا عدم الاشتراك فى هذه الانتخابات ، لما كانوا يعلمونه من انفضاض الأمة عنهم وأنها لن تنسى لهم ولرئيسهم فى وزارته حلّه للبرلمان وتأجيله لانعقاده ثلاث سنوات ، لولا أن تطورت الظروف ، واضطر محمد محمود إلى تسليم مقاليد الأمور إلى عدلى . وخرج على قرار الأحرار الدستوريين بعض الأعضاء ورشحوا أنفسهم مستقلين ولكن قلما كُتب لأحدهم النجاح . وألف مصطفى النحاس الوزارة فى يناير سنة ١٩٣٠ ومضى ينهض بأعباء الحكم .

وقبيل آخر العام الدراسى زفَّ بعض الشيوخ فى التجهيزية من خريجى مدرسة القضاء الشرعى إلى الفتى ورفاقه بشرى هى أن كلية الآداب بجامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) ستفتح أبواب قسم اللغة العربية بها لقبول طائفة من خريجى التجهيزية وطائفة ثانية من حملة الشهادة الثانوية الأزهرية ، ليكملوا دراستهم فيه ، اذ رأى طه حسين – عميد كلية الآداب حينئذ – وزملاؤه من أعضاء قسم اللغة العربية أنه من الخير أن يتيحوا لمجموعة ممن حفظوا القرآن الكريم واستظهروه فى صباهم ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية فى شىء من التوسع أن يتابعوا

الدراسة فى القسم المذكور ويتخرجوا فيه .

وبذلك يتيح قسم اللغة العربية فى كلية الآداب لمصر شبانا يحسنون تعليم العربية كما يحسنون الفقه بالدراسات الأدبية الحديثة التى يزوّد بها أساتذة القسم طلابه جامعين بين القديم والجديد أو بين الدراسات القديمة والدراسات الحديثة جمعا من شأنه أن يهيئ الفرصة لجامعة القاهرة كى تخرج شبابا يتقن العربية ويفقه أسرارها فقها سليما ، كما يتقن أدوات البحث الحديثة فى الأدب والنقد إتقاناً قوياً . وصمم الفتى فى دخيلة نفسه على الالتحاق بكلية الآداب حين تفتح أبوابها له ولرفاقه فى العام الدراسى المقبل .

وكان البرلمان قد اتخذ قرارا فى شهر فبراير بتفويض وزارة النحاس فى مفاوضة الحكومة البريطانية وسافر وفد المفاوضة برياسة النحاس إلى لندن فى شهر مارس ، ولقى هندرسن وزير الخارجية البريطانى ، وبدأت المفاوضات . غير أنها أخذت تتعثر وتحطمت سفينتها فى أوائل شهر مايو على صخرة صلدة ، هى صخرة السودان ، إذ أصر النحاس على السماح للمصريين بالهجرة إلى السودان لمن شاء منهم ذلك دون قيد ، كما أصر على أن لا يظل للإنجليز حكم السودان ثنائيا مع مصر إلا مدة عام واحد .

وعاد النحاس إلى مصر بعد إخفاق مفاوضته ، وكان مفروضا أن تتضامن جميع عناصر الأمة معه فى موقفه ضد سياسة الإنجليز الغاشمين ، ولكن سرعان ما ترامى لمصطفى النحاس أن الأحرار الدستوريين يحاولون الوصول إلى كراسى الحكم بأى ثمن حتى لو كان الثمن الإطاحة بالدستور ، وأسرع النحاس فأعد مشروعا لقانون بمحاكمة الوزراء إن هم عطلوا الدستور أو حذفوا مادة من مواده ، أو عدّلوا حكما من أحكامه ، وكذلك إن هم خانوا أمانة الحكم وبددوا شيئا من أموال الدولة .

وكثرت الشائعات حينئذٍ بأن القصر سيرتكب حماقة بشعة من حماقاته هى حل البرلمان وتعطيل الدستور ، حتى يخرج النحاس ووزارته من الحكم ، وغضب النواب الوفديون حين علموا ذلك غضبا شديدا ، وخطب العقاد خطبة نارية ملتهبة توعَّد فيها كل من يحاولون العبث بدستور الأمة بسوء المصير قائلا فى عنف : « إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه » وارتعدت فَرَائِصُ قوّاد وحواشيه وأعوانه ، غير أن الفتى والشعب جميعه أكبروا فى العقاد موقفه وشجاعته . وضاق النحاس بالدسائس التى تحاك من حوله فقدم استقالته فى شهر يونية سنة ١٩٣٠ وخلفه إسماعيل صدقى .

وكان الفتى قد عاد إلى دمياط فى الإجازة الصيفية ، وعلى عادته زار قريته وقرية أخواله ، وفى القرية الأخيرة وجد أهلها لا يزالون يتداولون قصة ، منذ انتخابات عدلى يكن المارة ، مؤداها أن ريفية من القرية ذكروا له اسمها واسم زوجها سألته حين عاد من الانتخاباتِ انتخبتَ سعدا أو عدلى ؟ وكان عدلى لا يزال فى رأى كثيرين من أهل الريف يرمز إلى حزب الأحرار الدستوريين رغم استقالته المبكرة منه .

وكأنما كان قد استقر فى أذهان بعض أهل القرى الريفية بأن من ذهب إلى الانتخابات إما أن ينتخب سعداً رغم وفاته ، وإما أن ينتخب عدلى رغم اعتزاله الحزبية ، وأجاب الرجل زوجته مازحا أو غير مازح : انتخبت عدلى . وفوجئ بها تستر وجهها من دونه ، وتقول له : لقد حرمت عليك ولم تعد زوجى . وعبثا حاول الزوج أن يصحح لزوجته القروية فكرتها ، فقد ظلت تماريه طويلا معتقدة أنها أصبحت محرمة عليه . ولما أعياه إقناعها خرج فبحث عن مأذون القرية حتى وجده وأتاها به ، فأقنعها بخطئها وما ظنته بزوجها من مفارقته لدينه .

ولعل فى ذلك ما يصور من بعض الوجوه كيف أن الانتماء لحزب الوفد

ولزعيمه سعد تحول فى نفوس بعض أهل الريف البسطاء إلى ما يشبه العقيدة حتى ظن بعضهم أنه جزء من الدين الحنيف على نحو ما ظنت تلك المرأة الريفية الساذجة . ولم يكن ذلك غائبا عن أذهان خصوم الوفد من المشتغلين بالسياسة . ومع ذلك كانت تغرُّهم الأمانى من حين إلى حين فيظنون ظنا واهما أنهم يستطيعون أن يزعزعوا مكانة الوفد الراسخة فى نفوس الأمة على نحو ما غرت « زيور » سنة ١٩٢٤ وعلى نحو ما غرت محمد محمود فى صيف سنة ١٩٢٨ وكما تغر إسماعيل صدقى فى يونية الآن سنة ١٩٣٠ إذ سولت له شياطينه أنه يستطيع سحب ثقة الأمة بالوفد ، وأغواه بذلك القصر والإنجليز فألف الوزارة فى نفس اليوم الذى استقال فيه النحاس .

وبدأ صدقى فى اليوم التالى لتأليف وزارته بتأجيل انعقاد البرلمان شهرًا ، وماجت البلاد بالثورة ضده ، ومضى يحاول قهر الشعب بإطلاق الجند والشرطة النار عليه ، مما زاد الثورة اشتعالا ، وخاصة حين رآه الشعب يفضّ الدورة البرلمانية .

وجزع الإنجليز لتلك الثورة ، واذا رئيس وزرائهم ماكدونالد يصرخ فى مجلس العموم عندهم بأن إنجلترا تقف من الأحداث فى مصر موقف الحياد ، مع تنصلها من تبعات صدقى فى اعتدائه على دستور البلاد . ومع عَدِّه مسئولا عن أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر إذا تعرضت للخطر.

وأبلغ الإنجليز هذا التصريح رسميا إلى صدقى ، فرد عليه بمحافظته على أرواح الأجانب ومصالحهم ، أما ما يتصل بالاعتداء على دستور البلاد فلم يتنصل منه بل قال إن مصر لم تلتمس فيه معونة من إنجلترا إذ هو من شئونها الداخلية ، التى لها الحق كل الحق أن تتصرف فيها كما تشاء.

وهى مناورة سياسية من ماكدونالد وصدقى ، فماكدونالد يعلن حياد إنجلترا ،

وهو حياد كاذب ، إذ هى التى أغوت صدقى من وراء ستار أن يعتدى على الدستور ويتمادى فى عدوانه كما سنرى بعد قليل ، وصدقى يعلن فى جرأة اعتداءه على حقوق الأمة فى دستورها ، آخذا بذلك موثقا من الإنجليز.

وكان الطلبة غادين على بيت الأمة رائحين للقاء النحاس ورجال الوفد ، وكانوا يذهبون إلى بيوت كبار الساسة المصريين يسمعون منهم رأيهم فى تلك الغيوم التى أخذت تنعقد فى سماء مصر.

ومن أطرف النكت التى قيلت بصدد رد صدقى على ماكدونالد بأنه ليس من حق إنجلترا أن تتدخل فى شئون مصر الداخلية ما جاء على لسان المحامى الكبير إبراهيم الهلباوى حين تعرض له أحد الطلبة يسأله عن رأيه فى هذا الرد وكيف تقبله إنجلترا فى صمت ؟ حينئذ أجابه الهلباوى : لا تعجب يا بنى فإن الإنجليز يحسبون صدقى منهم ولو أعلن رئيس وزارة مصرية آخر فى وجه الإنجليز ما أعلنه صدقى لأرسلوا إليه غاضبين توعدا وتهديدا وإنذاراً شديداً.



كان الفتى قد أنهى دراسته بالتجهيزية وصمم فى العام الدراسى الجديد : ١٩٣١/١٩٣٠ على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) . وقُبل بين كثيرين كانوا نحو ثمانين طالبا من الأزهر والتجهيزية . جاءوا - جميعا مشوقين إلى الاستماع لطه حسين ولمحاضراته وما يحدث من دراسات نقدية جديدة فى الأدب العربى وأدبائه . ورأى قسم اللغة العربية أن ينتظموا فى سنة تمهيدية قبل دخولهم السنة الأولى بالكلية يتعلمون فيها اللغات الأجنبية حتى يصبحوا على قدم المساواة فى تلك اللغات مع من ينتظمون فى الكلية من طلاب المدارس الثانوية المدنية .

وخُيِّر هؤلاء الطلاب الجدد بين تعلم اللغات : الإنجليزية والفرنسية والألمانية ليتخذوا من إحداها لغة أساسية أولى ومن ثانية لغة فرعية . واختار الفتى الإنجليزية

لغة أولى والفرنسية لغة ثانية . وعكف على درس هاتين اللغتين الأجنبيتين ليل نهار ، وكان يدرسها له ولرفاقه مدرسون أجانب : إنجليز وفرنسيون من مدرسي أقسام اللغات الأجنبية فى الكلية ، وكان تعلم الإنجليزية أسهل على الفتى من تعلم الفرنسية لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة فى كلماتها .

وطوال هذا العام الدراسى كان الوفد - ومعه الأمة - يقاوم هو وصحفه صدقى مقاومة باسلة ، بينما كان هو سادرا فى بغيه وطغيانه ، وبدأ العامَ فى أكتوبر بإلغائه دستور سنة ١٩٢٣ ووضْع دستور أبتر جديد ، واحتجت الأحزاب : حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، واحتجت معها صحفها بشدة ، وهبت عواصف المظاهرات ، وقمعها صدقى بقوة .

ولم يلبث صدقى أن عمد فى نوفمبر إلى تأليف حزب جديد من ذوى الأطماع والمآرب العاجلة ليكون لحكمه سندا ، ولو صوريا ، وفعلا كان سندا صوريا هزيلا ، وقد سماه حزب الشعب - من باب تسمية الأشياء بأضدادها - وأنشأ له صحيفة باسمه ، وكأنما أعاد به من جديد حزب زيور وأعوانه فى القصر : حزب الاتحاد الذى انهار من قواعده فى انتخابات سنة ١٩٢٦ وغدا كأن لم يكن شيئا مذكورا .

وكان عباس العقاد - منذ تولى صدقى الوزارة - يصليه نارا حامية بمقالاته الملتهبة ، وقد مضى يصبها فوق رأسه حميما لا يطاق ، وكانت كلمته السالفة فى البرلمان : « إن الأمة على استعداد بأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه » لاتزال تتردد على الأفواه ، وسياط مقالاته السياسية لا تزال تكوى وجه صدقى كيا أليما ، فدبر له هو وأعوانه محاكمة جائرة باسم العيب فى الذات الملكية وحُكم عليه بالسجن تسعة أشهر طوالا .

وكان ذلك نكسة فظيعة للحريات فى مصر إذ لم تعد السيادة للقانون بل

أصبحت للأشخاص الذين يسومون الأمة وأبناءها الأحرار العسف والقهر والبطش . وغضب طلاب الجامعة غضبا شديدا على صدقى بل أخذت الأمة بمختلف طبقاتها تعلن غضبها رغم أن الصحف كانت مقيدة وكانت الأفواه مكممة ، وصدقى ومن ورائه القصر والإنجليز يحكمون الشعب بالحديد والنار . لقد داسوا بأقدامهم الحريات الشرعية للشعب وأبنائه الأبرار وألقوا بالعقاد كاتب الأمة الحر فى غياهب السجون ، وكأنما وُضعت على مصر جميعها الأغلال وهى ترزح تحت أثقالها معلنة سخطها وغضبها ، وصدقى يغلق صحفها ، وكلما أغلق صحيفة خرجت صحيفة جديدة ترميه بشواظ من نار لا تخمد أبدا .

وفى شهر مارس سنة ١٩٣١ تم الائتلاف بين حزبى الوفد والأحرار الدستوريين لمناهضة صدقى ومقاومته ، وجعلوا لائتلافهم ميثاقا سموه عهد الله والوطن ؛ تعهدوا فيه بالنضال لإعادة الحياة الدستورية السليمة وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة انتخابات صدقى التى ينوى إجراءها . وقد مضى يعدّ العدة لإجراء هذه الانتخابات بتعطيل حرية الرأى وحرية الصحافة وحرية الكلمة وحرية الاجتماعات ، وضرب للانتخابات موعدا فى شهر يونية ، حتى إذا كان اليوم الموعود حاول أن يفرضها على الأمة قسرا بقوة الجيش والشرطة وتحولت الشوارع فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى إلى ساحات قتال ونزال بين الشعب وجنود الحكومة ، وامتد ذلك إلى بعض القرى فى الريف وأريقت دماء زكية كثيرة .

ولم يحدث انتخاب حقيقى ولا اقتراع حقيقى للأمة ، إنما حدثت معارك حامية بينها وبين جند الحكومة . وعمد صدقى إلى التزوير الشنيع لنتيجة الانتخاب ، فأعلن زورا وبهتانا أن نسبة من أدلوا بأصواتهم فيه بلغت ٦٧ $\frac{٧}{٨}$٪ وانعقد برلمانه المزيف فى يونية ، ومضى فى غيه وبغيه لا يرتدع ولا يزدجر .

وخرج العقاد من سجنه فى يولية . وزار ضريح سعد زغلول ، ولم يكد يصل

إلى فنائه حتى أسرع اليه جمهور كبير من الشعب لاستقباله . فأنشد فيه قصيدة طنانة أعلن فيها ثباته على مبادئه الوفدية وإصراره على الاستمرار فى منازلة أعداء الأمة الآثمين . وقد صور حياته فى السجن بكتابه المعروف : « عالم السجون والقيود » وهو أنشودة بديعة فى الحرية ورفض الظلم والطغيان وأخذ يهوى بمقالاته بل بسياطه النارية على رأس صدقى وأعوانه وكلما أغلق له صحيفة كتب فى أخرى مصوباً إليه قلمه بل رمحه طاعنا به طعنات مصمية فى صدره وصدور من وراءه من الإنجليز ومن القصر وحواشيه .

وبدأ عام دراسى جديد وفيه انتظم الفتى فى السنة الأولى بكلية الآداب مع الطلاب المدنيين الذين يدخلون الكلية فى أول كل عام ومع من كان يدخلها معهم من الآنسات ، فقد كان لطفى السيد ، مدير الجامعة حينئذ ، فتح أبواب الجامعة للفتيات ودخلت كثيرات منهن كلية الآداب ، وتذكر الفتى أيام صباه فى القرية ، وكأنما عاد من جديد هذا الاختلاط الذى بدأ به حياته التعليمية فى القرية . وكانت الآنسات سافرات وكثيرون يظنون أن دعوة قاسم أمين إلى سفور المرأة المصرية انتظرت حتى دخلت الفتيات الجامعة والواقع أنها كانت قد نجحت النجاح المنتظر مع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ إذ خرج نحو ثلاثمائه من كرام العائلات فى القاهرة تقودهن صفية زغلول فى مظاهرة كبيرة محتجات بقوة على سفك الإنجليز للدماء الزكية فى الثورة .

وفى الحق أن الحجاب إنما كان منتشرا بين النساء فى المدن المصرية بتأثير الأسر التركية التى عاشت طويلا فى المجتمع المصرى وكان يحاكى أسر المدن بعض أسر الريف وخاصة الثرية . أما عامة الريفيات فكن يشتغلن فى الحقول مزاملات للرجال من قديم سافرات دون أى حجاب أو نقاب .

وكانت الآنسات فى كلية الآداب موضع تقدير كبير لا من الأساتذة فقط بل

أيضاً من زميلاتهن جميعاً لما يأخذن به أنفسهن من الجد مبالغات فيه إلى أقصى حد ، يردنَ التفوق على الشباب ويعملن له بكل ما يستطعن حتى يزول إلى غير رجعة الاستخفاف بالمرأة .

وقد مضى الشاب يشارك زملاءه من الشباب وزميلاته من الآنسات فى الاستماع إلى محاضرات الأساتذه فى جميع مواد هذه السنة وكانت مواد عامة ، إذ كانت سنة إعدادية تعدُّ الطلاب للتخصص فى أقسام الكلية المختلفة . وكان لكل قسم مادة فى تلك السنة يدرسها الطلاب ، وكانت أقسام الكلية حينئذ سبعة أقسام هى أقسام اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والدراسات القديمة : اليونانية واللاتينية ثم أقسام الفلسفة والتاريخ والجغرافيا . وكان قسم الدراسات القديمة يدرس للطلاب فى تلك السنة الإعدادية اللغة اللاتينية .

وكانت تموج الجامعة طوال العام بالغليان ضد صدقى وحكومته الباغية . وكان على رأس الجامعة لطفى السيد وعداده فى الأحرار الدستوريين ، ومثله – حينئذ – طه حسين عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية بها . وحاول صدقى أن يستدرج طه حسين لكى يكتب فى صحيفة حزبه الزائف صحيفة الشعب ، وقلما كان يقرؤها أحد .

ورفض طه حسين رفضا باتا أن يكتب فى صحيفة عدو الشعب ، ورد وسطاءه ردا غليظا ، إذ كيف يتعاون مع مَنْ ألغى دستور الأمة وخنق الحريات واضطهد الأحرار وسفك دماء المواطنين الطاهرة فى انتخاباته المزورة . فعزله صدقى من منصبه فى شهر مارس ونقله إلى ديوان وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته .

وأضرب طلاب الجامعة ، وكان يوما مشهوداً ، فقد خرجوا فى مظاهرة ضخمة

إلى منزل طه حسين وهناك ظل خطباؤهم يتبادلون الخطب فى اعتداء صدقى على الجامعة وظلوا يهتفون بحياة مصر وحياة مفكريها الأحرار . وغضب لطفى السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته .

وكان طبيعيا أن يهدد خروج طه حسين من الجامعة الطلابَ الجدد الذين جاء بهم من الأزهر والتجهيزية ليكملوا دراستهم فى الكلية وخاصة أن صدقى وأعوانه ظنوا أن لهم يدا فى حركة الجامعة الثورية ضد الحكومة ، وفعلاً خيَّروهم بين الاستمرار فى الجامعة مع ما فى ذلك من صعوبة تعلم اللغات الأجنبية بحيث يقفون على قدم المساواة مع الطلاب المدنيين الذين أمضوا فى تعلمها سنوات طويلة ، وبين أن يعودوا من حيث جاءوا إلى الأزهر ودار العلوم . وعادت الكثرة الغالبة ، وكان الفتى بين من صمموا على إكمال التعليم الجامعى فى كلية الآداب حتى النهاية ، ومضى يكبّ على دراسة الإنجليزية والفرنسية واللاتينية .

وكان الفتى يعجب بمحاضرات التاريخ ، وكان موضوعها تاريخ مصر ، وقد توزعه أساتذه القسم ، كلٌ يحاضر فى دورة من دورات التاريخ المصرى ، فكان أستاذ الفرعونيات أو التاريخ القديم يحاضرهم فى موضوع طريف اختاره ، هو المعاهدات التى عقدتها مصر بينها وبين جاراتها فى الأزمنة العتيقة مصورا بما احتوت من مواد مختلفة دلالاتها الحضارية ، وأخذ أساتذة التاريخ بعده يتلونه فى عرض تاريخ مصر زمن البطالمة وفى الأزمنة الإسلامية والعصر الحديث ، وكان الأستاذ شفيق غربال أستاذ التاريخ فى العصر الأخير بارعا فى عرضه وإلقائه .

وكان الطلبة يتخوفون من اللاتينية والجغرافيا لكثرة من يرسبون بهما فى آخر العام ، وكان الراسبون فى الجغرافيا أكثر وأوفر لا لصعوبة امتحانها التحريرى فحسب ، بل أيضا لصعوبة امتحانها الشفوى . ولا يزال الفتى يذكر امتحانه فيها معى

آخر العام ، وكان مطلوبا منه ومن رفاقه فى الامتحان التحريرى الإجابة على خمسة أسئلة ، وانتهى الوقت قبل أن يجيب على السؤال الخامس ، إذ انتهى الزمن المحدد دون أن يشعر ، ودون أن يتمكن من أخذ الفرصة للإجابة عليه .

واستعد الفتى بعد ذلك للامتحان الشفوى ، وكانت اللجنة الخاصة بالجغرافيا تضع بين أيديها أوراق الاجابة فى الامتحان التحريرى لمراجعة الطلاب فى إجاباتهم إذا لزم الأمر ، وعجب إذ رأى الممتحنين يعيدون عليه نفس الأسئلة التى أجاب عليها فى الامتحان التحريرى . وبعد أن فرغ من إجاباته قال لهم إننى تركت السؤال الخامس لأن الوقت المحدد للإجابة كان قد انتهى وأنا مستعد الآن للإجابة على هذا السؤال غير أنهم لم يلتفتوا إلى ما قاله ، وأمروه بالانصراف مكتفين بما سمعوا منه .

وكانت دهشة الفتى كبيرة حين ظهرت نتيجة الامتحان ، إذ عرف أنه نال أكبر درجة فى الجغرافيا بين أقرانه ، وهى ١٤ من ٢٠ فى التحريرى وكذلك فى الشفوى . وإن الفتى ليحمد الله الآن أن اللجنة لم تزد درجته فى الامتحان الشفوى عن درجته فى الامتحان التحريرى إذ ربما دفعه ذلك إلى دخول قسم الجغرافيا وترْك قسم اللغة العربية الذى كان يتفق مع ثقافته وميوله الحقيقية .

وكان طه حسين حين خرج من الجامعة انضم إلى الوفد وأخذ يكتب فى صحيفة « كوكب الشرق » ثم استقل بصحيفة خاصة به سماها « الوادى » وأخذ فيها يكوى لحم صدقى الأثيم بسياط مقالاته . وكان غُلُّ الوظيفة قد خُلع عن حافظ إبراهيم بخروجه إلى التقاعد ، فانضم إلى المقاومين لصدقى وأخذ ينشر أشعارا فى الصحف مصورا فيها بطش صدقى بمواطنيه وخنقه للحريات وكذب الإنجليز فيما يزعمونه من حيادهم ولهم يقول فى بعض ما نشره :

املئوا البحر إن أردتم سفينا	واملئوا الجوَّ إنْ أردتم رُجوما
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ	أو ترونا فى التُّرب عَظْماً رَميما

وكانت قد تعددت حوادث القنابل ، وتعدد فيها المتهمون ، وكان يترافع فيها كبار المحامين الوفديين من أمثال مكرم عبيد ونجيب الغرابلى ، وكانت مرافعاتهم أشبه بقنابل مدوية لما تثير فى النفوس من الحماسة والبغضاء لصدقى وعهده.

وصمم الفتى فى العام الدراسى التالى ١٩٣٢/١٩٣٣ على أن يختار لتخصصه قسم اللغة العربية الذى جاء إلى الكلية من أجله ، وانتظم بين طلابه ، وكان هو ورفاقه يحملون فى غدوِّهم ورواحهم الصحف التى يكتب فيها طه حسين والعقاد وهيكل. وحدث فى شهر نوفمبر تصدع خطير فى الهيئة الوفدية. إذ خرج منها عشرة كانوا من المعدودين فى طليعة السياسيين المجاهدين من الوفديين ولم يلبث الوفد بزعامة النحاس أن ضم إلى هيئته اثنى عشر عضوا جديدا ، فالتأم الجرح على مضض من الشباب الجامعى وألم مرير. ومما يحمد لمن انشقوا من الوفد أنهم ظلوا مخاصمين لصدقى ، وظل سادرا فى حماقاته وفى عسفه وطغيانه وبغيه ، وصحف الأحزاب جميعا تعنف به وبحكمه عنفا شديدا. وكانت الوزارة قد نقلت إلى قسم اللغة العربية الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذ الأدب بدار العلوم ليشغل مكان طه حسين فيه ، وكان شيخا جليلا ، وله مؤلفات فى الأدب وغيره ، وكان حجة لايبارَى فى اللغة واشتهر ببحوثه اللغوية الفريدة ، وكان يأخذ الفتى ورفاقه بالجد فى الدرس ناصحا لهم مرشدا ما استطاع من الإرشاد والنصح ، وذكر لهم يوما فيما ذكر من إكبابه على البحث أنه قرأ القاموس المحيط للفيروزابادى بمجلداته الأربعة وفى يده قلم ليكتب توًّا كل كلمة يجدها فى هذا المعجم صالحة لأداء معنى حضارى جديد أو مصطلح علمى حديث. وبذلك ومثله كان يدفع الفتى ورفاقه للعكوف على القراءة والتحصيل والانتفاع بما يحصِّلون ويقرءون. وكان الفتى ورفاقه يدرسون الإنجليزية والفرنسية مع طلاب الأقسام المختلفة فى الكلية ودرسوا مع اللغتين اللغة السريانية لعام واحد مع ما درسوا من الأدب والنقد والنحو.

وكانت هذه السنة الدراسية ١٩٣٣/١٩٣٢ بقية السنوات المجدبة التى حكم فيها صدقى : سنوات عانت فيها مصر أزمة اقتصادية طاحنة ظلت تأخذ بخناقها ، وكلما تقدمت الأيام ازدادت هولا لم يسبق له مثيل ، إذ هوت أثمان العقارات والحاصلات إلى الحضيض . وبدلا من أن تعمل الوزارة على عوّن المزارعين والفلاحين أخذت تستخدم السياط فى القرى لجباية أموال الضرائب .

وكان صدقى وأعوانه يشيعون أنه اقتصادى كبير ، وتبين إخفاقه إزاء تلك الأزمة الاقتصادية الخطيرة وأنه لم يجلب إلى البلاد إلا الخسار والبوار ، وإلا ما أذاقها من البطش والتنكيل بالمواطنين ، وإلا فسادَ الحكم فساداً من الصعب أن يُصْلَح بعده ، حتى إذا كان صيف هذه السنة أحس الطاغية الباغى بالإعياء ، والشعب يغلى والصحف تزداد عليه سخطا وعنفا ، فاضطر إلى تقديم استقالته فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ وخلفه عبد الفتاح يحيى على رأس وزارة جديدة .

وكانت وزارة عبد الفتاح يحيى صورة ممسوخة من وزارة صدقى إذ تشبثت بنظامه فى الحكم ودستوره الزائف ، وتبين سريعا تخاذل حزب الشعب وبرلمانه ، فإنه انفضَّ توًّا عن صدقى واتخذ رئيسَ الوزارة الجديد زعيما له ورئيسا ! . وهكذا ذهب صدقى وكل ما دبَّره خلال سنواته الثلاث أدراج الرياح . .

وكان الفتى حينئذ فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربية . وكانت الدراسة فيه محببة إليه وحقا خرج منه طه حسين ، أخرجه صدقى ، ولكن كانت به صفوة من الأساتذه ، ملأت قلب الفتى وقلوب رفاقه حبا للمواد التى كانوا يدرسونها لهم وعناية بالتعمق فيها ، فهذا إبراهيم مصطفى أستاذ النحو يدرس لهم النحو بطريقة جديدة لم يألفها الفتى فى الأزهر ولا فى تجهيزية دار العلوم ولا فى كتب النحو القديمة التى اطلع عليها . طريقة نقدية تحليلية ، يُدْرَسُ فيها الباب من أبواب النحو دراسة تاريخية ، تصور آراء النحاة القدماء فيه على مر الأجيال ، ولا يكتفى الأستاذ

ذلك ، بل يعرض الباب مبينا ما جاء عن العرب من شواهد شعرية فيه محاولا أن ينفذ
ن خلال ذلك إلى رأى جديد يبسطه للفتى ورفاقه ، وكان قد وضع نصب عينيه
ن يخلّص النحو من شوائبه الكثيرة التي جعلته أشبه بغابة ملتفة . وكان يحاول بكل
جهده أن يفتح الأبواب أمام الفتى ورفاقه كى ينقدوا الآراء المتشعبة للنحاة فى
باب أو فى المسألة الواحدة وما أثاروه من علل وأقيسة . وكان الفتى يعجب بهذا
لاتجاه الجديد فى دراسة النحو ، ويحاول النفوذ - على غرار أستاذه - إلى بعض
آراء الجديدة ، وكثيرا ما كان الأستاذ يبتسم ويقول له : ما أحراك أن تُعنى
أليف القصص ، فإن عقلك كثير الخواطر كثير الاقتراحات والآراء .

وكان الفتى مثل رفاقه يُشغف بمحاضرات أستاذ البلاغة والتفسير أمين الخولى ،
كان قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى : مدرسة عاطف بركات ، وعين إماما
سفارة مصر بإيطاليا وألمانيا ، فرأى الغرب ووقف على جوانب من الحضارة
لفكر فيه ، وجعله ذلك يجمع بين القديم والجديد مع محافظة واضحة على القديم
زيه ، فقد عاد بعد رجوعه من الغرب إلى الزى الأزهرى . وهو مع ذلك يكره
نمود ويحب التجديد ، وكان يحاول أن يصطنع نهجا جديدا فى تدريس
لاغة ، وكان لا يزال يدفع الفتى ورفاقه إلى نقد كل ما يقرءون وأيضاً إلى نقد كل
يدلى به من آراء ، وكان يتقبل أفكارهم بصدر رحب وسعة أفق غير مظهر لأى
لب تبرما أو ضجرا مهما أطال فى حواره معه وفى مناقشته وجداله . وكان الفتى
فاقه يعجبهم فيه هذا الجانب ، فكانوا يستعدون دائما لجداله ويأخذون الأهبة
قشته وهو هاشّ لهم ، بل ما يزال يستزيدهم محاولا أن يوضح لهم الصواب من
طأ . وكان قد اختار فى التفسير للفتى ورفاقه أقسام القرآن الكريم فى مطالع بعض
ره لدراستها طوال العام . وأخذهم بقراءة كتاب التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم
وزية . وظل يحاول معهم بيان النسق القرآنى بين القسم فى مفتتح سوره وما يليه .

وكانت دراسة أدبية طريفة مرّن فيها الطلاب من بعض الوجوه على التذوق الفني
لآى الذكر الحكيم .

وبدأ الفتى فى هذه السنة بقسمه يدرس اللغة الفارسية وآدابها وكان أستاذه
عبد الوهاب عزام قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى : مدرسة عاطف بركات
وعُيِّن إماما فى سفارة مصر بلندن . وهناك التحق بجامعتها دارسا فيها اللغة الفارس
وكان مثلا رفيعا من أمثلة الدأب العلمى الخصب ، وهو أول أستاذ مصرى ع
الفارسية للطلاب فى جامعة القاهرة ، وكان يؤمن بالعروبة والإسلام إيمانا عميقا
شاعرا بأن الوطن العربى جميعه وطنُه بل إن الوطن الإسلامى جميعه وطنه
ويصور ذلك كتابه : « الأوابد » تصويرا حيا . وجعلته دراسته للآداب الفارس
يتعمق التصوف عند شعرائه الفرس وكان لذلك أصداء بعيدة فى نفسه ، إذ تم
بنزوع حقيقى إلى التصوف .

وكان عبد الوهاب عزام أديبا بارعا . عرفه الفتى فى أول سنة من سنيه فى كل
الآداب ، حين رآه وهو يناقَش فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه ،
استطاع أن ينشر لأول مرة « الشاهنامه » للفردوسىّ ملحمة الفرس المشهورة . وكا
قد ترجمها الفتح البندارى نثرا إلى العربية فى أيام الأيوبيين وكانت بها صحف
ساقطة سقطت من يد الزمن ، فاستكملها وحققها تحقيقا علميا رائعا ، مما جع
مناقشيه يضفون عليه ثناء عطرا . وكانت دروسه فى الفارسية محببة إلى الف
ورفاقه ، وسرعان ما عرفوا الفارسية ، وكان يقتطف لهم منها أزهارا يا نعة م
قصص الشيخ سعدى ومن أشعار حافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى ومحم
إقبال شاعر باكستان العظيم . وكان خفيف الظل لا يعبس فى وجوه تلاميذ
ولا يتجهم بل يتلقاهم دائما صافى الروح وادع النفس .

وكان من أساتذة الفتى المحبَّبين إليه فى هذه السنة الدراسية أحمد أمين أستا

الحياة العقلية الإسلامية ، وكان من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ، وعليه درّس فيها أستاذ اللغة الفارسية وأستاذ البلاغة والتفسير المذكوران . وحين تخرج فى مدرسته اختاره ناظرها عاطف بركات ليكون معيدا له فيما يدرس من علم الأخلاق لطلاب القسم العالى بالمدرسة . وكان يوضع له كرسى ليستمع مع الطلاب إلى عاطف بركات ، وهو يلقى دروسه فى علم الأخلاق ، وكان مما درسه معهم رسالة عن مذهب المنفعة للفيلسوف الإنجليزى « ستيوارت ميل » جاء فى مقدمتها : « منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم على الشيخ فيثاغرس » فلقب الطلاب الشاب المعيد لأستاذهم : الشاب سقراط . وكان قد عكف على اللغة الإنجليزية فتعلمها ، وتبوأ مكانه فى قسم اللغة العربية سنة ١٩٢٦ ورأى أن يغير زيه وكان قد نُقل إلى كلية الآداب من القضاء الشرعى فغيَّر عمامته إلى الطربوش وخلع الجبة والقفطان ولبس البذلة انسجاما مع بيئته الجامعية الجديدة .

وكان أحمد أمين يُعَدُّ فى طليعة من جمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة جمعا رائعا يُعينه عقل بصير ونظر دقيق ودأب لا يماثله دأب فى البحث واستيعاب لا يدانيه استيعاب لكنوز الفكر الإسلامى وذخائره . وكان يحاضر الفتى ورفاقه فى الحياة العقلية الإسلامية ، ولم تكن صورة هذه الحياة واضحة فى نفوس المثقفين فأكبَّ عليها يدرسها ويذلِّل صعابها وعقابها ، فإذا كل ما كان يحجبها عن الأعين يتزاح لا يفترق فى ذلك جانب عن جانب ، بل كل الجوانب يسلَّط عليه ضياء قوى . وساعدته على تسليط هذا الضياء ثقافته القديمة فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وثقافته الغربية الحديثة وما قرأه من آراء المستشرقين .

وكان الفتى يعجب إعجابا شديدا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين وخاصة حين يراه يتعمق فى وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من العلوم وما صاغته من الأفكار . وكان دائما يوصى الفتى ورفاقه أن يعنوا بتسجيل

معلوماتهم فى جذاذات وأن يتعودوا فى بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التى يقرءونها خير ما فيها ويدونوه فى هذه الجذاذات أو الوريقات حتى إذا احتاجوا إليه فى المستقبل وجدوه مَدَّ أيديهم وتحت أبصارهم .

وكان يذكر للفتى ورفاقه أن الكتب القديمة غير مفهرسة وأن الباحث إذا لم يستخدم طريقة الجذاذات فى أثناء قراءتها أفلتت منه المعارف الطريفة التى وقع عليها واضطر إلى قراءة الكتب ثانية . ولم يعرف الفتى قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عُنى بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة واتكاله الخاطئ على ذاكرته ، والذاكرة كثيرا ما تخون صاحبها . وقد يذكر الإنسان الفكرة التى تصادف أن قرأها وينسى المصدر الذى جاءت فيه .

وكان ينهى طلابه أشد النهى عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات ويكرر أن طريقة الجدل اللفظى عند القدماء حلت محلها فى العصر الحديث طريقة التحليل والاستقراء . ولعل هذا ما جعل الفتى فيما بعد يحرص على ألا ينزلق فى مجادلة عقيمة لا تجدى نفعا . وجانب مهم فيه كان يعجبه هو ورفاقه ، وهو حسن انتقائه للنصوص التى تصور الفكر العربى الإسلامى ، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرؤه وأروعه . وكان يألف الفتى ويوده مودة صادقة ، وهى مودة ظلت تزداد مع الأيام دعما وتوثقا .

وكان الفتى قد أخذ يقرأ فى كتب النقد الأدبى الغربى ، يدفعه إلى ذلك ما رآه عند طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل من آثار مطالعاتهم فى تلك الكتب ، فرأى أن يزود نفسه ببعض الزاد منها ، حتى تتسع خبرته بالأدب ومقاييس نقده . وكان كلما سمع باسم كتاب من كتب هذا النقد اشتراه وعكف عليه يقرؤه ، حتى إذا كان فى هذه السنة الثالثة بقسمه صمم أن يأخذ نفس الطريق الذى أخذه من قبله كبار النقاد المذكورون وأن يكتب بعض المقالات النقدية فى الشعر على ضوء النقد

الغربي الحديث .

وتصادف أن طه حسين - وكان لا يزال خارج الجامعة - كتب مقالا فى مجلة الرسالة عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفرنسى المتفلسف بول فاليرى حامل لواء الشعر والفلسفة فى فرنسا حينئذ ، وأشاد بما فى قصيدته من غموض . وانبرى كاتب عراقى يرد عليه قائلا : إن الغموض والجمال الفنى لا يجتمعان فى صعيد واحد وإن الوضوح هو مرجع كل جمال فى الشعر ، وبدونه لا يمكن أن ينعت بالجمال ، ورد عليه الفتى بمقال جعل عنوانه « حول الوضوح والغموض » أرسل به إلى مجلة الرسالة وكانت أهم مجلة أدبية أسبوعية فى مصر ، وكان يكتب فيها أعلام الأدب من أمثال طه حسين والعقاد كما كان يكتب فيها أساتذة الجامعة النابهون .

وكان الأستاذ أحمد أمين هو الذى يراجع فى تلك المجلة المقالات النقدية ، فما ارتضاه منها أخذ طريقه إلى النشر وما رفضه أهمل ولم ينشر ، ولم يكن الفتى يعرف ذلك ، وفوجئ به يقول له فى مستهل إحدى محاضراته : أنا قرأت لك مقالك عن الوضوح والغموض ، وسينشر فى العدد المقبل من مجلة الرسالة . وظل الفتى ينتظر يوم صدورها بفارغ الصبر ليراه ، ورآه فى عدد اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٣٤ وكاد يطير فرحا حين أبصر مقالا له ينشر فى مجلة الرسالة بجانب أعلام الأدب والنابهين من أساتذته .

وكان شعورا غريبًا شعر به الفتى حين قرأ كلامه لأول مرة بحروف الطباعة ، لقد كان معتادا أن يقرأه مخطوطا بقلمه ، أما أن يقرأه مطبوعا وفى مجلة أدبية ذائعة فإن ذلك حلمٌ من أحلامه ، وقد أبصره يتحقق ، فيتزل اسمه فى فهرس مجلة مع طه حسين والعقاد وأحمد أمين ونظرائهم . ويقرأ المقال مغتبطا مبتهجا وكان حين عرف أن مقالا سينشر له فى مجلة الرسالة سارع فكتب مقالا ثانيا بعنوان « ماهية الشعر » وقدمه إلى المجلة ، فنشرته فى العدد التالى ، استهله بالحديث عن تعريفات الشعر عند

العرب ، وفى الغرب ، مبينا أنها جميعا قاصرة عن أن تحيط بمعناه ، وناقش فى المقال فكرة الابتكار التى أثارها أرسطو فى كتابه عن الشعر وتحدث عن عناصره الأربعة : الفكرة والعاطفة والخيال والموسيقى .

وأحس الفتى بسعادة غامرة ، فحلمه يتحقق ثانية ، وهاهم رفاقه يقرءون المقالين ويناقشونه فى أفكاره ، لقد أصبح محط أنظارهم وموضع تقديرهم . وكتب كثيرا بعد ذلك ، كتب مقالات وكتبا ولكنه لم يشعر يوما بمثل هذه السعادة وهو طالب فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربية يكتب مع الأعلام من الأدباء ومن أساتذته فى مجلة الرسالة الأسبوعية ، وكتب فيها سريعا مقالا ثالثا بعنوان « رسالة الشعر ومقالا رابعا بعنوان الشعر والفنون » تحدث فيه عن العلاقة الوثيقة بين الشعر والفنون الجميلة موضحا كيف أن كثيرين من الشعراء الغربيين يعنون بدراسة هذا الفن أو ذاك من الفنون الجميلة بحيث يكون الشاعر مثلاً شاعرا ورساما فى آن واحد .

وكان عجب الفتى شديدا حين عاد إلى هذه المقالات فى سن متأخرة ليرى بواكير كتاباته إذ راها بنفس الصورة التى يكتب بها حين علت سنه : صورة الأسلوب الرصين الذى يعنى صاحبه فيه باختيار الألفاظ وحسن موقعها فى الأسماع ، مع الاهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة يريد أن يجعله أسلوبا سائغا . وكان يظن أن رصانة أسلوبه أتته – بمر الزمن – من قراءاته الكثيرة – فيما بعد – للجاحظ وإعجابه بروعة أسلوبه . ويبدو حقا ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة .

وكان كثيرون ينادون بعد سقوط حكومة صدقى الطاغية بما ينبغى للعقاد من تكريم ، وأقيم له فى أواخر شهر أبريل حفل تكريم فى مسرح الأزبكية برياسة

مصطفى النحاس . وفيه خطب طه حسين خطابا ضافيا مشيدا بشاعرية العقاد ، وأنه بفضله لم يرتحل - بوفاة شوقى وحافظ إبراهيم - سلطان الشعر عن مصر . ولم يلبث أن أعلن مبايعته له بإمارة الشعر العربى المعاصر قائلا : « ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء استظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .

وكانت وزارة عبد الفتاح يحيى تشغل كراسى الحكم طوال هذا العام الدراسى ، وكانت شخصيته ضعيفة ، فاستهان به الإنجليز والقصر وحواشيه ، وركع على قدميه أمامهم جميعا ، صادعا لمشيئاتهم ، منفذاً لرغباتهم . وظل على ذلك نحو عام يتلقى اللطمات من هنا وهناك حتى إذا لم يبق فى قوس كرامته منزع قدم استقالته فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ .

وخلفت وزارته فى الحكم وزارة محمد توفيق نسيم وقد استهلت عملها بإلغاء دستور صدقى : دستور سنة ١٩٣٠ ، وتنفست مصر الصعداء ، ولم يلبث أن أقام الوفد فى شهر يناير مؤتمراً كبيراً لبحث أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وظل المؤتمر منعقدًا يومين ، وكبار خطباء الوفد يتبارون فيها من أمثال مصطفى النحاس ومكرم عبيد وأحمد ماهر وكأنما تحول المؤتمر وما كانت تنشره الصحف الوفدية من تلك الخطب إلى ما يشبه سوقا سياسية أدبية كبرى للشباب كى يمتلئوا حماسة للوفد ومبادئه وسياسته من جهة ، وكى يغذوا مشاعرهم وعواطفهم الوطنية وأفكارهم بقطع خطابية من البلاغة الرائعة .

وحاولت وزراة نسيم أن تعيد دستور سنة ١٩٢٣ ووافق القصر ، وسرعان ما عارض الإنجليز فى عودته وبذلك انكشف الغطاء الذى كانوا يتستّرون خلفه زمن صدقى بإعلانهم الحياد فى كل ما يتصل بشئون مصر الداخلية إذ تبين بوضوح أنهم كانوا وراء إلغاء صدقى لدستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوره الزائف الجديد .

وكان الفتى فى السنة الرابعة النهائية بقسمه ، وكان طوال هذه السنة والسنة السابقة يشغف بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وكان قد تخرج فى الأزهر وتتلمذ للإمام محمد عبده ، وقرَّبه منه حتى كان يعدُّه ابنا له ، لما رأى فيه من فرط الذكاء والدأب على الدرس ، ومما كتبه إليه فى أثناء تلمذته عليه : « ما سررت بشىء سرورى أنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك . . ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء » . وبعد تخرجه فى الأزهر سافر إلى باريس والتحق هناك بجامعة السوربون ، ودُعى بعد سنتين ليحاضر بجامعة ليون فى الشريعة الإسلامية والأدب العربى ، وترجم إلى الفرنسية مع برنار ميشيل رسالة التوحيد لأستاذه الإمام محمد عبده ، وألفا معا عنه كتابا بالفرنسية . وله عنه كتاب بالعربية . وعيِّن الشيخ مصطفى بكلية الآداب أستاذا مساعدا للفلسفة الإسلامية ، وظل يحتفظ بزيه الأزهرى فى صورة أنيقة دون بهرجة ، وكان يحفُّ به وقار ومهابة وجلال ، كما كان يحف به حب طلابه لسماحة نفسه وكريم شمائله إذ كان يفتح قلبه لهم ، وكان غاية فى التواضع وأدب الحديث دون أى ترفع ، وكأنه أب رءوف أو صديق عطوف .

وكان يذهب فى محاضراته مذهبا لم يُسْبَقْ إليه هو أنه ينبغى ألاّ يعوَّل فى دراسة الفكر الإسلامى على كتب الفلسفة الإسلامية وبيان جذورها وفروعها فيه ، بل يعوَّل على كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامى حيث يتضح اتضاحا تاما استقلال هذا الفكر وأنه لا يستمد من مصادر أجنبية ، بل يعتمد على ذاته إذ نشأت مقوماته وتطورت داخل العقل العربى الإسلامى الخالص ، وكان يتتبع حياة هذا الفكر وأصوله تتبعا علميا خصبا .

وكان الفتى ورفاقه يشغفون شغفا شديدا بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق

وما يثير فيها من آراء وأفكار ، وكان قد تعمق الثقافتين : الأزهرية القديمة والفرنسية الحديثة ، فكان محافظا وفى الوقت نفسه كان مجددا . أو بعبارة أخرى كان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه ، فهو من الرعيل الذى استظهر إلى أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث تزودا من شأنه أن يجلو هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية على نحو ما كان يبرز الشيخ مصطفى عبد الرازق الفكر الإسلامى بخصائصه ومقوماته وطوابعه .

وكان ما يزال يعرض على الفتى ورفاقه فى محاضراته آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين والعرب من أمثال رينان وكارادى‌فو وجولدتسيهر والشهرستانى وابن القيم وابن خلدون ، ويناقشهم جميعا محاولا بكل قوته أن يرفع صرح الفكر العربى الإسلامى فى مجال أصول الفقه ، لبنة من فوقها لبنة ، وفكرة تعلوها فكرة . وكان حين يتناول آراء القدماء والمحدثين من العرب والغربيين يحصيها ويستقصيها مع الإنصاف الشديد فى عرضها دون أى تحيف أو تعصب لفكرة أو لشخص ، وكأنما كانت فى يديه موازين عادلة ، فهى تزن بالقسطاس دون أن تميل يمنة أو يسرة . وكان لهذا الإنصاف والعدالة فى الأحكام والآراء أثرهما البعيد فى نفس الفتى ، إذ تعمقا ضميره ووجدانه .

وفى شهر ديسمبر من هذا العام الدراسى الأخير للفتى فى قسمه أعادت وزارة نسيم طه حسين إلى كلية الآداب بالجامعة وما إن علم طلابها بيوم مجيئه إليها حتى هرعوا من جميع كلياتها إلى استقباله وحملوه على الأعناق بين الهتاف والتصفيق . وكان سرور الفتى عظيما بعودة أستاذه الذى دخل الجامعة من أجله للاستماع إلى محاضراته ، واختار طه حسين أن يحاضره هو ورفاقه فى كتابين قديمين من كتب النقد العربى هما : كتاب نقد النثر الذى كان منسوبا خطأ إلى قدامة ، وكتاب الموازنة بين

أبى تمام والبحترى للآمدى ، واختار للفتى ورفاقه معها مقدمة كتاب تاريخ الأدب الإنجليزى للناقد الفرنسى « تين » ليتبينوا من خلالها تطبيقه على الأدب الإنجليزى نظريته المشهورة التى ذهب فيها إلى أن الأدباء تحكمهم فى آثارهم الأدبية دائما ثلاثة قوانين : الجنس فلكل جنس بشرى خواصه التى تميزه ، والبيئة فلكل بيئة خصائصها الإقليمية التى تنفرد بها ، والزمان فلكل زمان أحداثه وظروفه السياسية والثقافية والدينية والاقتصادية ، وهى فى رأيه قوانين كقوانين الطبيعة ، قوانين جبرية ملزمة لا يعدوها أى أديب فى أدبه ، فهو أثر حتمى لها ، أثر لا يتخلف أبدا .

وكان الفتى ورفاقه يستمعون إلى محاضرات أستاذهم طه حسين فى هذه الكتب الثلاثة معجبين بملاحظاته وما ينثر من أفكاره التحليلية النقدية ، وكان يخلب ألبابهم بصوته الساحر ، صوت غذّاه فى صباه من قديم بعلم التجويد حين كان يتلو القرآن الكريم ويرتّله على شيخه وعريفه فى الكتاب ، صوت تتئد فيه الكلمات ومقاطعها ونبراتها ، وكأنها توقَّع على آلة موسيقية .

ولم يعرف الفتى محاضراً شَدَّ إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند أستاذه طه حسين . فقد كانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفئدة ، وكان أحيانا يلقيها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية ، فكنت لا تكاد تجد مكانا لا للجلوس فحسب ، بل أيضا للوقوف ، وكل ذلك . أو قل كثير منه - بفضل صوته المحبب الرائع الذى اكتسبه لنفسه خلال تعلمه لتجويد الذكر الحكيم . وكان قد أتقن هذا التجويد صبيا ، وكثيرون مثله فى أيامه أتقنوه ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومخارج كلامه وصورة إلقائه كما لاءم طه حسين .

وكان طه حسين يضيف إلى ذلك ملكة أدبية خصبة وقدرة بارعة فى اختيار

الكلمات وبثّ نسق صوتى بديع فيها : نسق يقوم على حسن الأداء واكتمال الجرس فيه حتى يبهر السامعين ويخلبهم بجمال لغته المصفاة العذبة . وقد يبدو فى أساليبه وكلامه شيء من التكرار ، وكان بعض رفاق الفتى يلاحظ ذلك فكان الفتى يراجعهم فيه محاولا أن يلفتهم إلى أن تكراره ليس تكرارا لفظيا ، كما قد يتبادر إلى بعض من يسمعونه أو يقرءونه ، بل هو تكرار معنوى لا يزال يدخل عليه إضافات ذهنية وخواطر عقلية بحيث يترابط بناؤه ويرتفع كصرح مشيد دون أى خلل أو نقص أو عوج بل مع النسق الصوتى الفريد ، ومع المتاع بالفكر الخصب الذى يعنى أشد العناية بالكليات ، أو بعبارة أخرى الفكر الثرى الذى يستطيع أن يستخلص دائما من الجزئيات الحقائق الكلية الكبرى ، مع عرضها فى صور وهيآت تجلّيها وتدفع دفعا إلى تمثُّلها عن اقتناع . وقد يكون إعجاب الفتى بمحاضرات أستاذه وما كان يوفر لها من جرس صوتى بديع سببا من أسباب عنايته بأسلوبه وانتخاب ألفاظه ، وربما كان يتأثر أستاذه طه حسين أيضا فى عنايته بالكليات فى كتاباته ، إذ يحرص فيها دائما على التحول بما يقرأ من الدقائق والجزئيات إلى الكليات العامة .

وكان مصطفى كمال ماضيا – منذ إسناد رياسة الجمهورية التركية إليه – فى تغريب تركيا أو جعلها جزءا من الغرب ، متخذا إلى ذلك كل وسيلة ، حتى يحدث ثورة اجتماعية كبرى – كما أسلفنا – فى بلاده ، من ذلك أنه أصدر قانونا بأن يكون لكل أسرة تركية لقبها الخاص مما جعل الجمعية الوطنية الكبرى تطلق عليه لقب أتاتورك . ومعناه أبو الترك ، عرفانا بجميله فى تحرير البلاد والنهوض بها .

ومن هذا التغريب لتركيا أن مصطفى كمال أمر بخلع الترك للطربوش شارة زيهم واتخاذهم الزىّ الغربى والقبعة إعلانا منه بأنه لا رجعة فى هذه الحركة . وكانت المرأة التركية قد اقتحمت ميادين العمل منذ قيام الجمهورية . فدفعها فى هذا الطريق

حتى أصبحت على قدم المساواة مع الرجل فى جميع الحقوق . وفى ربيع هذا العام : ١٩٣٥ جعل لها حق الاقتراع فى الانتخابات حقا مشروعا ، ودخلت الجمعية الوطنية الكبرى لأول مرة سبع عشرة نائبة .

وأقبلت أيام الامتحان النهائى : امتحان الليسانس ، ولا يزال الفتى يذكر من الامتحان وأيامه طرائف ، منها أنه فى ليلة امتحان الفارسية حلم أنه فى محل كبير لبيع سجاجيد إيرانية وأنه اشترى منه ثلاثة سجاجيد ، وعجب إذ رأى إحداها مقطوعة فى أحد جوانبها ، واشتراها بهذا العيب . واستيقظ من حلمه دون أن يلتفت إليه ، وذهب إلى الامتحان ووزعت أوراق الأسئلة وتناول ورقته ووجدها ثلاثة أسئلة ، وأجاب عليها حتى إذا خرج من الامتحان عرف أنه أجاب إجابة كاملة عن سؤالين ، أما السؤال الثالث فعرف أن إجابته عليه ناقصة وظهرت النتيجة وعرف أنه أخذ فى اللغة الفارسية وأدبها ست عشرة درجة من عشرين وكانت أقل درجاته من حيث نسبتها المئوية . وحينئذ تذكر حلمه ، وتعجب من هذا الاتفاق بين الحلم والحقيقة ، وهو ممن لا يؤمنون بالأحلام ، مما جعله يعتقد أن هذا مجرد اتفاق حدث لخوفه من الامتحان فى هذه المادة .

ودخل امتحان البلاغة ووجد بين الأسئلة سؤالا عن ترتيب البلاغيين لصور التشبيه من حيث قيمتها البلاغية ، وهم يجعلونها ثمانى منازل أو ثمانى درجات يعلو بعضها فوق بعض بلاغيا . ومن الصعب أن يذكرها الطالب ويضعها مرتَّبة حسب منازلها الدقيقة ، فماذا يفعل الفتى ؟ لقد رأى أن يذكر فى إجابته الأسس التى رتِّبت عليها هذه المنازل مع بيان أنها لا تفى ببيان درجات التشبيه وقيمتها البلاغية ثم وضع للتشبيه وأمثلته ترتيباً بلاغيا جديداً .

ولقى أستاذ البلاغة الفتى فقال له لقد اعتبرت إجابتك عن هذا السؤال كاملة وقد أخذتَ أعلى درجة بين رفاقك . ولا ينسى الفتى إعجاب أستاذ الفلسفة

الإسلامية بإجابته فى مادته . وكان عادة يسأل سؤالا واحدا يشغل الطلاب مدة الامتحان المقررة ، وكانت ثلاث ساعات ، وكان قد قرأ إجابته وأعجب بها ، ولقيه قائلاً له : لقد حققت ظنى .

ولا يزال الفتى يذكر امتحانه الشفوى فى الأدب ، وكانت اللجنة مؤلفة من طه حسين وأحمد أمين . وكان قد ظهر للأخير قبيل الامتحان بأشهر معدودات كتابه « ضحى الإسلام » وقرأه الفتى قراءة متأنية ، وكان قد بسط فيه الحياة الاجتماعية بوجهيها المادى والمعنوى والحياة الثقافية بكل جداولها الإسلامية والعربية والأجنبية ، مصورا ما أخذه العرب عن الفرس والهند واليونان وأهل الكتب السماوية . وسأل طه حسين الفتى هل اطلعت على هذا الكتاب ؟ وأجابه : نعم ، حينئذ أخذ يتسع معه فى مناقشة جوانبه وفى مدى اطلاعه على مصادره ، وكان من المصادر التى خصها بسؤاله كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ، فبمجرد أن ذكره الفتى سأله عن مؤلفه وعن عصره الذى عاش فيه وعن محتوياته ، وكان قد تصادف أن اطلع عليه الفتى فى مكتبة الجامعة .

وأخذ الفتى يحاول الإجابة عن أسئلة أخرى لطه حسين تتصل بالكتاب ، وأعطاه أحمد أمين جزءا من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وقد فتح له صفحة فيه ، وسأله أن يقرأ ما فيها من شعر ، وكان مقطوعة منسوبة إلى شاعر جاهلى ، وقرأها الفتى قراءة حسنة فيما يبدو لأنه لم يراجع فى قراءته ، وأخذ طه حسين يسأله عن صياغتها وعن معانيها ، ثم سأله عن مدى اقتناعه بأنها حقا جاهلية وأخذ الفتى يحاول نقد صياغتها ومضى يبرهن على ما يقول من لغتها وأسلوبها . وقال طه حسين لصاحبه مبتسما : لقد أكثرنا على الفتى من الأسئلة ، وحسبه ذلك . وكان الامتحان قد استغرق من الوقت نحو ثلاثة أرباع ساعة ، وشعر الفتى كأنما أرضى أستاذيه الكبيرين .



تخرج الفتى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٥ وقد تجاوز سِنَّ الفتوة وحداثة الشباب ، وكان السابقَ بين رفاقه ، ورأى أن يزور أستاذه طه حسين فى منزله ، فذهب إليه ، ووجده كأنما كان فى انتظاره ، وبعد أن هنأه على تفوقه فى الامتحان سأله أى عمل تريد أن تعمل فيه ؟ فتلعثم الشاب ولم يدر ماذا يقول ، وسرعان ما طلب طه حسين من سكرتيره أن يسأل هاتفيا عن مدير إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية وردَّ المدير ، وحدثه طه حسين مقدمًا له تلميذه آملا أن يكون فى إدارة المطبوعات وظيفة خالية له ، ووعده المدير بتدبير الوظيفة ، وسافر طه حسين إلى أوربا كعادته لقضاء الصيف بها . ولم يكتب للشاب أن يعين فى الوظيفة المبتغاة إذ كانت مصر حينئذ تمرّ منذ أيام صدقى المشئومة بأزمة اقتصادية خانقة ، وكانت أبواب الوظائف مغلقة أمام الخريجين فى الجامعة وخاصة فى الكليات النظرية .

ورأى الشاب أن يزور أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد لقيه فى منزله لقاء كريما ، ولم يكن منزلا أو قصرا للأسرة فحسب ، بل كان أيضا منتدى كبيرا يجمع الأزهرىَّ العصرىَّ والمثقفَ ثقافة قديمة والمثقف ثقافة حديثة والوزير وغير الوزير من رجال الفكر والقلم . وكان أستاذه كوكب هذا النادى بما يجمع من الثقافة الحديثة والفكر الجديد مع التمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وروح الإسلام .

وكل من عاش هذه الحقبة فى تاريخ مصر يعرف ما كان لهذا المنتدى من التأثير الواسع فى الفكر المصرى حينئذ ، فلما ألم به الشاب راعه وقار المجلس ومن فيه ، ولاحظ ذلك عليه أستاذه ، فأخذ يتلطف إليه وبلغ من تلطفه أن كان حين يعرِّف جلساءه به واحدًا بعد واحد يذكر لهم منصبا جامعيا رفيعا آملا أن يشغله الشاب بعد حين . وأخذ يقترب منه فى الحديث مع أدب بالغ حتى يدنيه منه ، وحتى يرفع عنه ثقل ما أحسه فيه من كلفة ، حتى إذا رأى الشاب الانصراف ضرب له موعدا آخر يلتقى به .

ولم يكن هذا اللقاء الكريم للشاب شيئا آثره به الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد كان يلقى تلاميذه جميعا هذا اللقاء الباشّ البار ، وإن الشاب ليذكر ذلك كأنه بالأمس ويذكر معه لطف أستاذه طه حسين - بل لطف أساتذته جميعا - فى لقائه إذ لم يكونوا أساتذة لتلاميذهم فقط ، بل كانوا أيضا آباء يمتلئون لهم برا وعطفا . ولا يذكر الشاب أنه لقى أحدا منهم إلا كان طلاقةَ وجهٍ مجسدة ومؤانسةً ومودةً . وبفضل هذه المنزلة التى كانوا يرفعون إليها تلاميذهم . وبفضل الثقة التى كانوا يضعونها فيهم ، وبفضل ما غرسوه فى نفوسهم من مثل عليا ، استطاع تلاميذهم أن يحققوا على الأقل بعض ما كانوا يؤملونه فيهم من شغف بالبحث والدرس .

وأقبل العام الدراسى الجديد فى الجامعة وانتسب الشاب فيه إلى قسم الماجستير ، وكانت الصحف - وكذلك الأمة - لا تزال تضغط على محمد توفيق

نسيم حتى يعيد دستور سنة ١٩٢٣ وإذا صمويل هور وزير الخارجية البريطانى يصرح فى التاسع من نوفمبر بأن حكومته نصحت الحكومة المصرية ألا تعيد هذا الدستور لأنه غير صالح . وبذلك بدا للأمة ولشباب الجامعة أن الإنجليز يتدخلون علانية فى شأن الدستور وشئون الشعب الداخلية ، حتى إذا كان اليوم الثالث عشر من نوفمبر يوم عيد الجهاد ثارت مظاهرات عنيفة ضد الإنجليز الغاشمين ، واستمر ذلك فى اليوم التالى وخرجت جامعة فؤاد (القاهرة الآن) ثائرة ، واتجهت من ساحتها إلى القاهرة لا يثنى جموعها الرصاص ولا إطلاق النار ، وسقط شهيدا عبد الحكيم الجراحى من طلبة كلية الآداب ومحمد عبد المجيد مرسى من طلبة كلية الزراعة . وتكررت المظاهرات فى الأيام التالية وسقط فى ميادين الجهاد شهداء عديدون . وتظل مصر ثائرة غاضبة ، حتى إذا كان اليوم الثامن والعشرون من نوفمبر عم الإضراب فى الجامعات والمدارس واحتجبت الصحف وأغلقت المتاجر والمصانع وعُطِّلت الأعمال ، ولبست القاهرة ثياب حزن رهيب وحداد أليم على أبنائها الشهداء الأبرار ، وشاد طلاب الجامعة فى فنائها نصبًا تذكاريا لشهدائنا تخليدا لذكراهم العطرة ، وحفروا أسماءهم على قاعدته ، حتى لا تنساهم الأجيال القادمة أبدا . وفى اليوم السابع من ديسمبر أزاحوا الستار عن النصب فى احتفال مهيب ، واندفعوا إلى القاهرة فى مظاهرة كبرى يهتفون بسقوط الاحتلال وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ .

وكان الطلاب قد أخذوا يسعون – منذ شهر نوفمبر – إلى عودة الائتلاف بين الأحزاب كما حدث فى سنة ١٩٢٥ حتى تسترد مصر دستورها وحقوقها السياسية المغتصبة ، وكُلِّلت مساعيهم بالنجاح فى شهر ديسمبر فائتلفت الأحزاب وتكونت منها جبهة وطنية للمطالبة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة والعمل على عقد معاهدة مع الإنجليز . وسرعان ما أعيد الدستور فى الثانى عشر من ديسمبر

استجابة لمطلب الجبهة الوطنية . وأظهرت الأحزاب أنها لا ترضى عن وزارة محمد توفيق نسيم ، فقدم استقالته فى يناير ، وألف على ماهر بعده الوزارة .

وبينما كان الشاب يحضر فى مساء أحد الأيام محاضرة لأستاذه طه حسين كان يلقيها على طلبة الماجستير ، إذا أحد رفاقه يطلب إلى أستاذه أن يساعده فى تعيينه بمجمع اللغة العربية ، ولم يكن طه حسين عضوا فيه حتى هذا التاريخ . وفوجئ بطه حسين يقول لرفيقه : إن زميلك فلانا رُشِّح فعلا لوظيفة محرر بالمجمع اللغوى ، ولم يكن فلان سوى الشاب ، وكان لا يعرف ذلك ، فتقدم إلى أستاذه شاكرا ، فقال له : لست أنا الجدير بالشكر لأنى لم أرشحك لهذا العمل إنما الذى رشحك له الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذك الذى عرفك أثناء محاضراته فى القسم حين خرجتُ منه ، فهو الذى اختارك لمعرفته السابقة بك حين كان يدرس لك .

وكان الشيخ أحمد الإسكندرى عضوا بارزا فى المجمع ، فذهب الشاب إليه شاكرا ، ولقيه لقاء كريما ، وقال له ينبغى أن تمضى توا إلى مراقب المجمع – وكان الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف – وتتسلم منه العمل . وذهب الشاب إليه وتسلم العمل ، وانتظم فى المجمع يذهب إليه يوميا . ولم يسند إليه عمل يملأ به فراغ الساعات التى يمضيها فيه ، إذ كانت أعمال المجمع لا تزال محدودة ، وكان به مكتبة غنية بالكتب ودواوين الشعر القديمة والحديثة فجعلها مرتاده اليومى .

وكان يقرأ حينئذ فى كتب النقد الغربى ، فرأى أن يضم إليها قراءة كتب النقد العربى ، واستطاع أن يحوِّل ما بها من ملاحظات نقدية إلى جذاذات أو وريقات بادئاً بالجاحظ ومنتهياً بابن الأثير . ومن هذه الجذاذات ألف – فيما بعد – كتاباً عن النقد العربى : وكتب مقالات مختلفة فى بعض المجلات الأدبية عن نقاد العرب المهمين .

وكان فى المكتبة دواوين للشعراء المهاجرين إلى أمريكا الشمالية والجنوبية من

أمثال جبران وفوزى المعلوف وأخيه شفيق ، فأكب عليها يقرؤها . وكان قد بدأ التعرف على هؤلاء الشعراء حين كان صبيا فى دمياط يختلف إلى دكان جاره التاجر اللبنانى ولكن بونا بعيدا بين التعرف الجديد على هؤلاء الشعراء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية والتعرف القديم ، إذ اتسعت مداركه وثقافته وعرف المذاهب الأدبية الغربية الحديثة وخاصة المذهب الرومانسى الذى تنعكس منه إشعاعات كثيرة على أولئك الشعراء.

وكان من أول ما عُنيت به وزارة على ماهر تأليف وفد للمفاوضات مع المندوب السامى البريطانى ومعاونيه ، وتألف الوفد برياسة مصطفى النحاس ، وفى الثامن من شهر مارس بدأت المفاوضات فى قصر الزعفران بالقاهرة ، وبينما كان على ماهر يعدّ العدة للانتخابات فى أول مايو توفى فؤاد ونودى بابنه فاروق ملكا ، وأُلّف له مجلس وصاية ظل نحو سنة وثلاثة أشهر إذ لم يكن قد بلغ سن الرشد.

وأجريت الانتخابات فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٩٣٦ وفاز الوفد فيها بأغلبية ساحقة ، وألف مصطفى النحاس رئيسه الوزارة وكانت وفدية خالصة . وكانت المفاوضات مع السفير البريطانى مستمرة وانتقلت فى أواخر يولية إلى قصر أنطونيادس بالإسكندرية ، وانتهت بوضع مشروع لمعاهدة أقرتها وزارة الخارجية البريطانية سريعا فى ٢٦ من أغسطس . وكان أهم ما جاء فيها تضييق مناطق احتلال بريطانيا لمصر مع احتفاظها بعشرة آلاف جندى فى قناة السويس ، واستعدادها لإلغاء مصر الامتيازات الأجنبية ، وأن تضع مصر فى حالة نشوب حرب جميع مواردها تحت تصرف بريطانيا وأن تظل إدارة السودان تحت إمرة حاكم بريطانى عام.

وكان طه حسين قد انتُخب عميداً لكلية الآداب ، وفى العام الدراسى الجديد ١٩٣٦/١٩٣٧ رأى أن تأخذ الكلية بنظام المعيدين لأول مرة فى تاريخها الجامعى ،

واختارت أقسام اللغة العربية والفلسفة والدراسات القديمة بعض خريجيها ، ممن أثبتوا تفوقاً فى الدراسة حتى يُعَدُّوا إعداداً علمياً حسناً . وكان الشاب من بين من اختارتهم الكلية ، وكُلِّف بالمحاضرة لمجموعة من فصول السنة الأولى الإعدادية فيها ، وكانت محاضراته تتناول جوانب من النقد الأدبى .

ولا يزال الشاب يذكر نادرة حدثت له فى إحدى محاضراته الأولى ، إذ كان عدد الآنسات لا يزال قليلا فى المحاضرات ، وجرت العادة حينئذ أن يجلسن فى مقدمة الصفوف ويجلس الطلاب خلفهن ، ودخل الشاب المحاضرة ، فرأى الطالبات متنثرات فى المدرج والطلاب يجلسون فى مقدمة الصفوف دون أى حسابٍ للطالبات . وأحس الشاب فى ذلك خروجا على التقليد المتبع ، فنبَّه الطلاب إلى خطئهم فى هذا السلوك ، وأنه ينبغى دائما أن يتركوا الصفوف الأولى للطالبات كما يصنعون فى بقية المحاضرات .

وفى المحاضرة التالية فوجئ بترك الطلاب للصفوف الأولى للطالبات ، وهن يجلسن فيها ، غير أنهم تركوا وراءهن طائفة أخرى من الصفوف خالية ، ومنهم من ذهب إلى أعلى المدرج ، فطلب منهم أن يهبطوا من أماكنهم . وتردد نفر منهم فى الاستجابة إليه ، فبدأ يلقى محاضرته بصوت خفيض ، فجاءوه وهم يبتسمون .

وتعوَّد منذ الدرس الأول له فى الجامعة . أن يمضى فى محاضرته حتى انتهائها دون أن يخرج عن موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها ، فلم يحدث أن ذكر نكتة أو نادرة لطلابه . ومن أكبر الغلط – فى رأيه – أن يشغل معيد أو مدرس أو استاذ جزءا من محاضرته بفكاهة يعنُّ له أن يحكيها للطلاب أو أن يقصَّ عليهم حادثة وقعت له أو ذكرى من ذكريات ماضيه فى الدراسة استجماما أو استرواحا . وحقا قد يصفق له الطلبة استحسانا ، ولكنه استحسان وقتى إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضرهم . وأخطر شيء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فتلتصق به فى

محاضراته ولا يستطيع منها خلاصا . وليس من ريب فى أن من حق الطلاب فى الجامعة على المحاضر فى أى موضوع أن لا يشغلهم بشىء سواه ، حتى يطَّرد نسقه فى أذهانهم ، وحتى يتضح لهم نهجه فيه ومقدماته ونتائجه انضاحا تاما .

وكانت الوزارة الوفدية برياسة النحاس تحكم البلاد وتصرِّف شئونها طوال هذا العام الدراسى وكل شىء بيدها مقاليده وزمامه . ويُذكر لها حينئذ أنها نقلت رفات سعد زغلول إلى الضريح الذى بُنى له بجوار بيت الأمة : بيته وبيت قرينته العظيمة ، كما يُذكر لها أنها دعت فى شهر أبريل الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية فى مصر إلى مؤتمر عقد فى مونترو بسويسرا وانتهى فى مايو بإعلان الدول المذكورة إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر إلغاء تاما .

وبينما البلاد مستجيبة للنحاس ووزارته الوفدية إذا هو يحوِّل تشكيلات للشباب موالية له إلى فرق سياسية وفدية سماها أو سميت فرق القمصان الزرقاء ، وسرعان ما استحالت فرقا إرهابية لخصوم الوفد ، فهى تعتدى على اجتماعاتهم وعلى صحفهم . وكان ذلك خطأ كبيرا من النحاس إذ أصبحت حرية الرأى السياسى مهدرة .

وشُغل الشاب فى هذا العام باختيار موضوع لرسالة الماجستير ، واختار لرسالته نشر كتاب من كتب التراث النقدى القديم ، وأخذ يحاول إعداده ، مع انتظاره لمصوراتِ مخطوطات منه مبثوثة فى مكتبات إستانبول . ودار العام الدراسى وحلَّ عام دراسى جديد دون أن تأتيه تلك المصورات ، فرأى أن يختار للماجستير موضوعاً جديداً هو النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ويُعَدُّ الكتاب أهم مرجع للشعر العربى وشعرائه من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ويموج بملاحظات اللغويين والشعراء والنقاد على الشعر ، وهو فى واحد وعشرين مجلداً ، وكأنما استهوته مجلداته الكثيرة .

وكان النحاس قد سار فى وزارته سيرة حزبية ، تقوم على كثرة الاستثناءات فى تعيين الموظفين من أنصاره وترقيتهم سريعا مفتاتًا على القوانين الحكومية دون مراعاة لأى كفاءة ، وساء ذلك وفديًّا كبيرًا هو محمود فهمى النقراشى ، كما ساءه استخدام فرق القمصان الزرقاء فى كبح المعارضة السياسية للنحاس ، فأصدر بيانا فى سبتمبر دعا فيه النحاس ووزارته إلى النزول على إرادة المصريين فى المساواة بينهم وفى احترام آرائهم السياسية ، وطالب بحلٍّ فرق القمصان الزرقاء .

وأجاب الوفد على هذا البيان بفصل النقراشى منه فى سبتمبر ، ولم يوافق أحمد ماهر رئيس مجلس النواب على هذا القرار وأيَّد النقراشى فى موقفه بعض الوفديين . وبدا كأن انشقاقا كبيرا سيحدث فى حزب الوفد . وانتهز القصر الفرصة فى آخر ديسمبر وأقال النحاس ، وألف الوزارة فى نفس اليوم محمد محمود . ولم يلبث الوفد أن فصل أحمد ماهر فى أوائل يناير لتضامنه مع النقراشى ؛ وانضم إليهما بعض الشخصيات الوفدية ، وكوَّنوا حزبا جديدا باسم « الهيئة السعدية » جعلوا رياسته لأحمد ماهر .

أما محمد محمود فبدأ بتأجيل انعقاد البرلمان الوفدى شهرا ، وفى الشهر التالى حلَّ مجلس النواب ، وحدد شهر أبريل لاجتماع المجلس الجديد ، وأجرى الانتخابات ، ففاز حزب الهيئة السعدية بثمانين مقعدا ، مما دفعه إلى التعديل فى وزارته وإشراك حزب الهيئة السعدية فيها مع حزبه الدستورى ، وفى عهد هذه الوزارة تقرر إنشاء جامعة الإسكندرية كما تقرر فى أواخر أغسطس إزاحة الستار عن تمثالى سعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية .

وظل الشاب فى العام الدراسى الجديد ١٩٣٨/١٩٣٩ منهمكا فى إنجاز رسالته التى يعدها للحصول على درجة الماجستير ، وكان قد استخرج ما فى كتاب الأغانى من نقد ، ومضى يكمل فصولها وطبعها . وفى شهر يناير نوقش فيها ونال الدرجة

المأمولة . وحمد الله كثيرا أن وُفِّق لاختيار هذا الموضوع ، لا لما ظفر فيه بنتائج علمية فى النقد الأدبى العربى القديم فحسب ، ولكن أيضا لأنه أتاح له أن يقرأ فى بواكير حياته العلمية الجامعية أكبر مصدر للشعر العربى وشعرائه فى الحقب الأولى .

وبذلك سيطر مبكرًا على مادة هذا الشعر التاريخية والنقدية ، وهى سيطرة مكنته – فيما بعد – أن يكتب فى الشعر العربى وشعرائه مؤرخا تارة وناقدا تارة أخرى . ولو أنه لم يتح له أن يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخام التى تتجاوز عشرين مجلدا لظل الشعر العربى بتاريخه القديم الطويل محجوبا عنه ، ولانزوى فى عصر أو ركن منه يبحث فيه لا يعدوه ، أما وقد قرأ هذا الكتاب فإن أبواب هذا الشعر فُتحتْ له ولم توصد أبدا فى وجهه ، مما أعطاه فرصة ، بل فرصا كبيرة ، كى يبحث فيه بحوثا كثيرة لا يقف فيها عند عصر بعينه دون غيره من العصور أو بيئة بعينها دون غيرها من البيئات .

وعقب امتحان الماجستير عرض طه حسين على الشاب موضوعا للحصول على درجة الدكتوراه هو التكلف الشديد فى الشعر العباسى فى القرن الرابع الهجرى وطلب إليه أن لا يبتّ فى قبول الموضوع قبل أن يعرضه على هذا الشعر وشعرائه وأن يظل فى هذا العرض حتى العام الدراسى الجديد ، فإن رآه جديرا بالبحث ورأى المادة العلمية فيه وافرة اشتغل به ، واتخذه موضوعا لرسالته ، وإلا انصرف عنه . وعلى هذا النحو لم يكن طالب الدكتوراه يسجِّل موضوعا لنيل درجتها بمجرد التفكير فيه وما يتبادر إليه من أنه صالح لدراسته ، بل كان يُطلَبُ إليه أن يظل أشهرا معدودات يَسْبُر الموضوع المقترح لرسالته ويختبره ، لتتضح له أغواره وتستبين له مادته ، وهل هى خصبة أو غير خصبة . ولو أنك قلت الآن ذلك لطالب يعرض موضوعا للحصول على درجة الدكتوراه لعده شيئا غريبا عجيبا . وليس عجيبا ولا غريبا ، بل إن ذلك ينبغى أن يكون دائما تقليداً لطالب الدكتوراه قبل

أن يسجل موضوعه نهائيا ويتقيد - ويقيد القسم - به حتى لا يتبين له - فيما بعد - أنه تسرع ، وأنه كان عليه أن يتمهل تمهلا يقيه الندم أو ما يشبه الندم .

وظل الشاب يقرأ فى شعراء القرن الرابع الهجرى من أمثال المتنبى ومهيار وأبى العلاء ، وقرأ فى الشعراء السابقين لهم من أمثال البحترى وأبى تمام ، حتى إذا كان مفتتح العام الدراسى الجديد لقى أستاذه بعد عودته من أوربا ، وكان معتادا تمضية الصيف بها سنويا ، فقال للشاب : ماذا صنعت ؟ أجابه : إننى قرأت شعراء كثيرين ، وأخذ الموضوع يتضح فى نفسى ، غير أنى أرى إحداث تعديل فيه ، ليكون دراسة لفن الشعر العربى منذ ظهوره إلى العصر الحديث ، فقد لاحظت أنماطا من التصنع أو التكلف الشديد عند شعراء القرن الرابع وما بعده ، وأنه سبق هذه الأنماط مذهبان فى صناعة الشعر ونظمه : مذهب كان يقوم على التصنيع أو التنميق الحسى والمعنوى ، فالشعر ينبغى أن يكون محسنات عقلية وبديعية ، ومذهب ثان كان يقابله ، وهو أقدم منه ، هو مذهب الصنعة أو الجهد الذى لابد منه فى أى عمل شعرى . وارتضى طه حسين من الشاب هذا التصور للموضوع .

وكانت قد حدثت فى الصيف بعض أحداث سياسية تتصل بالوزارة فإن القصر طلب إلى رئيسها محمد محمود فى أغسطس سنة ١٩٣٩ أن يقدم استقالته ، وقدمها راغما ، وألف الوزارة بعده على ماهر ، ولم يدخلها أحد من الأحزاب ، وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب ، فطلب إليه الإنجليز إعلان الأحكام العرفية ، فأعلنها فى أول سبتمبر.

واشتعلت الحرب بين الحلفاء وألمانيا ، وشغل الناس وشغلت الصحف بأخبارها ، حتى إذا كان شهر أبريل سنة ١٩٤٠ قدم الوفد إلى الحكومة البريطانية

مذكرة شديدة اللهجة ، مطالبا بأن تعلن إنجلترا توًا : أنه بمجرد أن تضع الحرب أوزارها ستسحب قواتها من مصر ، وتلغي الأحكام العرفية التي جلبتها الحرب ، وتعقد مع مصر معاهدة تكفل لها حقوقها في السودان . ولم يتضح أثر لهذه المذكرة . وفي شهر مايو أقامت وزارة علي ماهر احتفالا كبيرا أزاحت فيه الستار عن تمثال مصطفى كامل المقام في ميدانه بشارع قصر النيل .

ولم يلبث علي ماهر أن قدم استقالته في شهر يونية ، وألف الوزارة بعده حسن صبري . واشتركت الأحزاب معه فيها ، ما عدا حزب الوفد ، واستطاعت وزارته أن تنهض بعمل خطير في الشهر التالي لتوليها الحكم ، هو إلغاء صندوق الدين الذي فرضته أوربا على مصر في عهد الخديوي إسماعيل لوضع رقابة أوربية على شئونها المالية وظل وصمة في جبين حكام مصر ، حتى ألغته وزارة حسن صبري .

ولم تطل أيام حسن صبري إذ توفي في شهر نوفمبر ، فألف الوزارة بعده حسين سري ، واشترك معه في وزارته حزب الأحرار الدستوريين . وفي عهد هذه الوزارة كثرت الغارات الجوية خاصة على الإسكندرية ، وأنشأت بها الدولة مخابئ كثيرة ، وبالمثل في القاهرة وبعض المدن الكبرى. وفي أواخر يولية سنة ١٩٤١ قبلت الهيئة السعدية الاشتراك مع حسين سري في وزارته ، ودخلها منهم خمسة وزراء .

وكان الشاب في هذه الأثناء يقصر اهتمامه على رسالته التي يعدها للحصول على درجة الدكتوراه بوضع المذاهب الفنية للشعر العربي على مر العصور ، وظل يعني بجمع مادتها من دواوين الشعراء على اختلاف بيئاتهم وتفاوت عصورهم ، ومن تراجمهم المبسوطة في كتب الشعر العربي وتاريخه عند القدماء والمحدثين من العرب والمستشرقين ، ومن كتابات نقاد العرب والغرب في النقد الأدبي وما نثروه من ملاحظات كثيرة على فن الشعر وصناعته . حتى إذا كان العام الدراسي الجامعي الجديد : ١٩٤٠/١٩٤١ ذكر لأستاذه طه حسين أنه ماض في كتابة رسالته ،

وحبذا لو بدأ يقرأ فصولها معه ؛ وسُرَّ أستاذه ، وجعل له يومًا معينا فى كل أسبوعين هو يوم الخميس ، وساعة معينة هى الساعة التاسعة وكان يذهب إلى أستاذه فى الموعد المحدد فيجده دائما فى انتظاره .

وما إن استمع طه حسين إلى الفصل الأول من فصول الرسالة حتى أخذ يثنى على الشاب وعلى رسالته فى اجتماعات قسم اللغة العربية . وكلما مضى الشاب فى قراءة فصول رسالته على أستاذه ازداد ثناؤه ، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويدا ودأبا فى رسالته ، باذلا لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتى يرضى أستاذه ، وحتى يكون مستحقا لثنائه .

وإن الشاب ليذكر دائما هذا الثناء الكريم ، وكيف كان يدفعه دفعا إلى مضاعفة جهده ، حتى لينجز رسالته — منذ تسجيلها — فى نحو عام ونصف . وطه حسين بذلك كان أستاذًا مشرفا على رسالة الشاب بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة ، بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة ومقدرة .

ومن طريف ما يذكره الشاب عن أستاذه فى هذه الفترة التى كان يعدُّ فيها رسالته أنه غدا عليه ذات يوم لقراءة فصل من فصولها ، فسأل الأستاذ التلميذ عن محاضرة له كان قد ألقاها فى الجامعة الأمريكية فأجابه : «كانت محاضرة طيبة ، فقال له متعجبا : «طيبة فقط» . فقال التلميذ لأستاذه : كل ما تلقيه من محاضرات رائع . فاستغرق طه حسين فى الضحك طويلا ، واضعا إحدى يديه على الأخرى ، ثم قال له : ما رأيك فى أنى ظللت أعدُّ هذه المحاضرة فى نحو شهر ، أقرأ لها كتباً مختلفة ، حتى استوعبت موضوعها ، وألقيت فيه المحاضرة التى سمعتها .

وخجل التلميذ من أستاذه ، لأنه لم يكن يطرأ على باله أن يُعنَى بالإعداد لمحاضراته العامة كل هذه العناية ، وخاصة أنه كان يمتاز ببراعة فائقة فى الأداء ، براعة لم تتح لأى محاضر فى أيامه . وكان لا يذكر اسمه وأنه سيلقى محاضرة عامة فى

أى مكان حتى ينطلق إليه الجمهور ، يريد أن يستمع إلى بيانه المصفَّى ، وما يكاد صوته يرتفع بهذا البيان حتى تصغى إليه القلوب والألباب .

وكان ذلك درسا رائعا للتلميذ ليعلم ، بل ليستقر فى نفسه أنه لا يوجد عمل أدبى - محاضرة أو غير محاضرة - جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مئونة مجهدة ومشقة متعبة . حتى طه حسين صاحب البيان الساحر الذى كان يخلب به مستمعيه يتحمل جهدا مضنيا لا فى بحوثه الطويلة وكتبه فحسب ، بل أيضا فى محاضراته .

وكان التلميذ يكثر من ذكر ذلك لرفاقه مبهوراً بأستاذه ودأبه فى السعى إلى مُثله العليا فى كل قول يلقيه ، وكل بحث يُمْليه ، ملحا دائما فى هذا السعى ، مع ما اكتسب حينذاك من المجد الأدبى . وكان من الطبيعى للتلميذ أن يقتدى بأستاذه فى السعى العلمى المتصل ، وأن يحاول ، بكل ما يستطيع من جهد وعناء شاق إتقان رسالته .

وبلغ من تقدير طه حسين لرسالة الشاب أن أذن له بالابتداء فى طبعها حين أوشك على الانتهاء منها . وعادة لا يؤذن للتلميذ بطبع رسالته التى يعدُّها لدرجة الدكتوراه إلا بعد قراءة الأستاذ المشرف لكل فصولها ، وكأن طه حسين أراد أن يصور لتلميذه تقديره لما سمع من فصول رسالته وأنه أصبح واثقاً من نفوذه إلى غايته منها فى منهج سديد وطريق قويم .

وبدأ الشاب يطبع ما قرأه على أستاذه من فصول الرسالة من جهة ، ويكتب ويقرأ ما بقى منها عليه من جهة ثانية ، حتى إذا أتم طبعها قدمها إلى الكلية مع خطاب من طه حسين لتكوين لجنة المناقشين ، وكانت حينئذ تتكون من خمسة أساتذة . منهم الأستاذ العميد . ونوقشت الرسالة مناقشة علنية فى أواخر شهر يناير ، وغص المدرج رقم ٧٨ الذى عقدت فيه المناقشة بكلية الآداب

. بحشد كبير من الطلاب والجمهور ، حتى لم يكد يبقى فيه مكان لقدم . وفى أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة ، فوجد أباه الشيخ واقفا مع عشرات من الطلاب مكدسين فى مدخل المدرج ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه ، غير أن أباه قرأ خبرا عنه فى الصحف صباحا ، فسافر إلى القاهرة توا ، واتجه إلى الجامعة ، فسمع ابنه – وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية – يلقى تلخيص بحثه . وما أعجب الآباء : إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود ، ويمنحونهم أنفس ما يملكون : يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكورا . ومهما صنع الأبناء لآبائهم ، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم ، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب ، بل أيضا حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة .

رقم الإيداع		١٨٢٥ / ١٩٨٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١١٧٩-٦	ISBN

١ / ٨٤ / ١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)